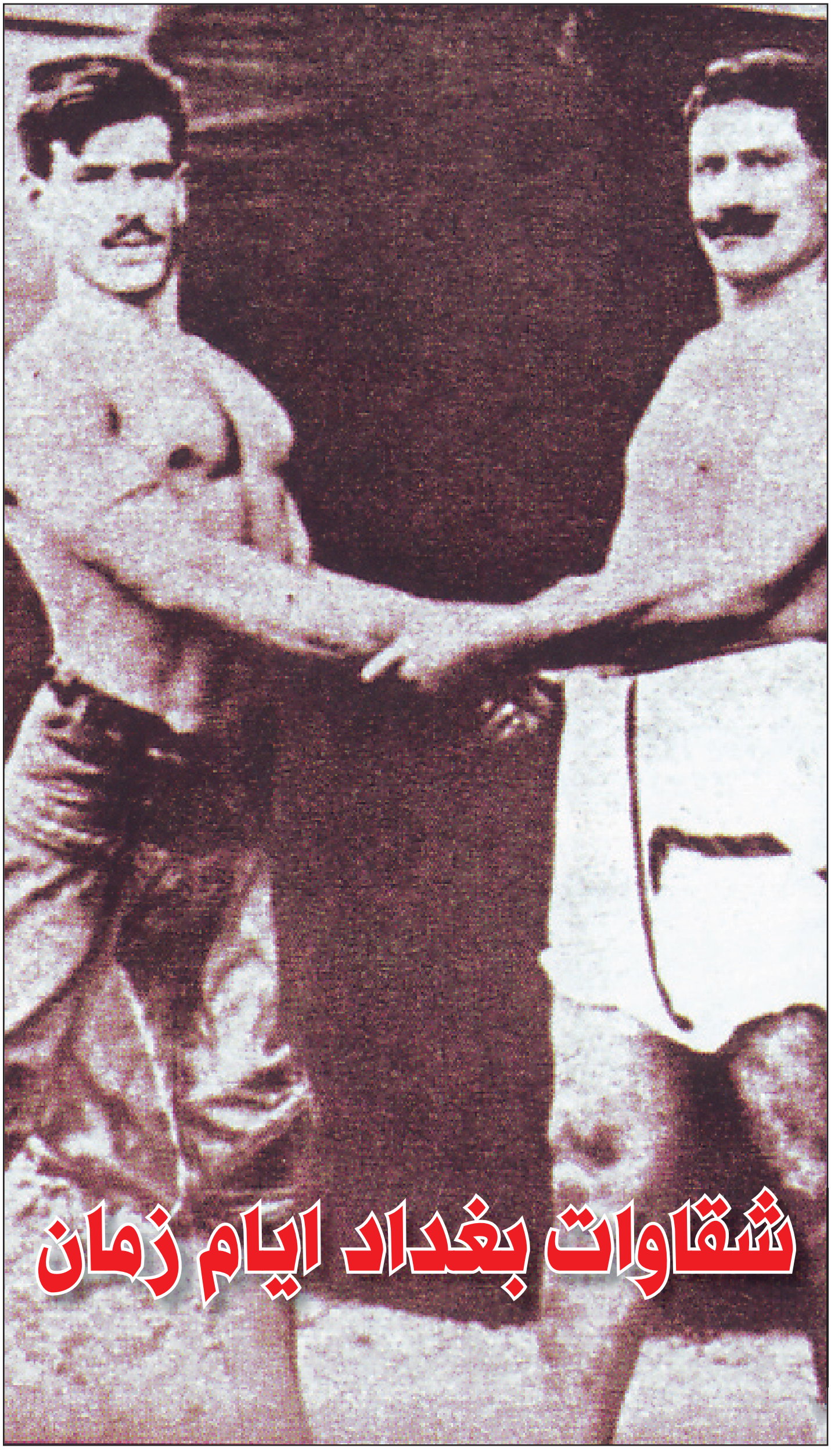

شقاوات بغداد ايام زمان

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

العدد (2558) السنة العاشرة

الاثنين (6) آب 2012

2

ذكريات بغدادية عن حلبات الريسز وخيولها الشهيرة ايام زمان

ذكريات بغدادية عن حلبات الريسز وخيولها الشهيرة ايام زمان

نسيم قزاز
باحث ومؤرخ

وتبوأ مكان الصدارة من تلك المصطلحات مصطلح "الريسز" وتعني في الأنكليزية "سباق" حتى اهمل استعمال المفردة العربية ولم يعد هناك من يعزي مفهومها الى سباق الخيل، ومن بين النوادر والمِلَح التي كانت تدور آنذاك بين المواطنين هي تلك التي تزعم أن حوذيا (أبو عربانة قوج - صاحب حنطور) وقف في يوم قائظ يصرخ بأعلى صوته "سباق"، "سباق" موجها صراخه نحو جماعة من رواد "الريسز" الذين تجمهروا في الجانب المقابل من الشارع ينتظرون عربانة أو سيارة ركاب تقلهم "للريسز"، واستمر صاحبنا العربنجي ساعة طويلة بصراخه وانبح صوته ولم يلتفت اليه احد من الرواد الذين بدورهم ضاقوا ذرعا بالوضع وعانوا من شدة الحر فتوجه احدهم الى العربنجي يسأله: "عمي كلي شنو هذا السباق؟" وعندما أجابه أنه "الريسز" انهال عليه بكلمات نابية قائلاً: "ولك ابن ال كح.... إحچي عربي كول "ريسز". ومن المفردات الأخرى التي كانت دارجة عند العوام والتي حرِّفت من الأنكليزية أتذكّر المصطلحات التالية:

"الكونة" - حرِّفت من كلمة "كورنر-Corner"ويقصد بها الدورة الأخير قبل الوصول الى الخط النهائي من حلبة السباق. و"چانص" – محرفة من "چانس Chance-" وتعني "نصيب" أو "حظ" وكثيرمن رواد "الريسز" كانوا يتوجهون الى من يظنون بأنه ذو دراية بالخيول المتسابقة ويسألونه أن يعطيهم چانص اي يرشدهم الى الحصان الأكثراحتمالاً بالفوز. وكان والدي الذي كان من رواد "الريسز" وصاحب خيل يمتنع من "إعطاء چانص" لأحد وذلك إحترازاً من عدم التوفيق والخسارة اللذان يجلبان الغضب والسخط على من أعطى الچانص. وهناك اصطلاحان لم يطرأ على لفظهما تغيير أو تحريف وهما "جاكي" (Jokey) وهو الفارس الذي يمتطي الجواد في السباق و"فلوك" (Fluke)ويعني الربح العالي الغير متوقع. وفي تلك الأيام اشتهر "جاكيان" الأول هو "ممفي" وكانت له الأولية في ركوب جياد الو صي علي عرش العراق الأمير عبد الإله الذي كان مغرماً بسباق الخيل وكثيراً ما كنت أشاهده جالساً في "اللوج" مع حاشيته وبيده منظار (دربين) يتابع من خلاله مجرى السباق وخاصة عندما كان أحد جياده مشتركاً فيه، والثاني هو "شلال" الذي ذاع صيته في بغداد كفارس ماهر. وكانت اسماء فرسان الخيول تتعالى في صراخ صاخب ينطلق من حناجر الجمهور الذي راهن على الجواد الذي يمتطيه ذلك الفارس عند وصول الخيول المتسابقة إلى المرحلة الأخيرة من حلبة السباق. وكان صراخ المراهن يرتفع اكثر لدى سماعه صوت مراهن اخر بجانبه ينادي على اسم فارس منافس له مشجعا اياه على سرعة العدو وكأن هناك دافع أو شعور داخلي لا يمكن كبحه يقول له ان المنافسة بقوة وبشدة الصراخ ستحث الفارس على الفوز. احتل كل من "ممفي" و"شلال" مكان الصدارة في حناجر المراهنين الى جانب الفرسان الآخرين. ومن الصور التي علقت في ذاكرتي من هذا المشهد هو ذلك اليهودي المدعو حسقيل أبو السيلان أي بائع الدبس الذي راهن على حصان كان راكبه "جاكي" يدعى حسون ووقف يتوسل بلهجته اليهوديه: "أبدالك حسون بس غاسك، غاحت فلوس السيلان، بس غاسك حسون" (جعلت فداءك يا حسون رأسك فقط، ضاعت فلوس السيلان، رأسك فقط) اي فُز في السباق ببروز رأسك فقط لا أريد أكثر. وكان هذا المسكين ألغث لا يستطيع النطق بحرف السين وينطقه ثاء مما جعله محل استهزاء عند الطائشين من المراهنين عندما سمعوه يتوسل: "أبدالك حثون بث غاثك حثون غاحت فلوث الثيلان...." أما شلال فتركيبة كلمتي "سوك شلال" اللتين كان يصرخهما المراهنون بشدّة اصبحت عند مفهوم البغداديين تعني "أسْرع" أو "إمضِ قُدماً". وحين نوقشت في البَرمان العراقي لائحة إسقاط الجنسية العراقية عن يهود العراق في الثاني من شهر مارس عام ١٩٥٠ تحمّس أحد النواب للمشروع ولم يتمالك نفسه وانطلق يهتف "سوك شلال" حتى اسكته رئيس البرلمان الذي ترأس الجلسة. أما الأرباح فكانت توزع علي الفائزين بنسبة عكسية لكمية التذاكر او المبالغ التي روهن بها علي الحصان الفائز، فكلما ازداد المبلغ قلّ الربح والعكس بالعكس. وكثيراً ما كان المجازفون من رواد "الريسز" يراهنون على الحصان الذي يعتبره الكل أنه خاسر لا محالة آملين بفوز كبير غير متوقع إذا "طلع فلوك". وذات يوم راهن خمسة أشخاص بينهم حسقيل اليهودي ووضع كل منهم درهما في يد حسقيل وأتمنوه لشراء تذكرة التي كان سعرها آنذاك ربع دينار راهنوا فيها على حصان كان احتمال فوزه ضئيلا آملين أن "يطلع فلوك" وتحقق املهم وفاز الحصان وكان الربح مضاعفا بعشرين مرة من سعر التذكرة. والدرهم الذي أودعوه عند حسقيل أصبح يساوي دينارا كاملا وهذا مبلغ ضخم في تلك الأيام وانتشر الخبر في بغداد واصبح حديث الساعة لدى الكثير من سكان العاصمة. وكان من عادة المرحوم والدي حال عودته من "الريسز" مساءً، الجلوس في قهوة خضوري زن□ي في محلة أبو دَوْدَوْ اليهودية لاحتساء الشاي ومناقشة مجرى السباق مع رواد المقهى وكنت دائماً ارافقه ذهابا الى الريسز وإيابا الى المقهى. ولم نجلس إلا قليلا حتى ورد المقهى شخص غريب تبدو على قسمات وجهه وسماته انه من الأشقياء ووجه الى الحاضرين سؤالاً: "وينه هذا حسقيل آني شريكه وأريد حل□ي" وكان حسقيل جالسا ولم يتعرف عليه وكان واضحا أن ادعاءه كاذب، ثم جاء بعده كذابون آخرون وادعوا نفس الأدعاء فما كان من والدي إلا أن إرسل حسقيل الى بيته بعد أن أخذ منه أسماء شركائه الحقيقيين ثم طمأنهم بعد ذلك وكفل لهم حقهم لعلمه ان مدعي الباطل سوف يكفون عن أدعاهم بعد مدة وجيزة. وكان بعض أصحاب الخيول يتعمدون إفشال خيلهم في السباق ويخلقون انطباعا مزيفاً عن الجواد لدى روّاد "الريسز" كي يمتنعوا عن الرهان عليه باعتباره من الخاسرين وعندئذ "سيلعب عليه" أصحاب الحصان واذا ما فاز "وطلع فلوك" فسيدر عليهم أرباحاً طائلة، وكان يطلق على عملية الأفشال المصطنعة هذه "جرّ الحصان". وكان هناك بعض المراهنين من الذين لم يلازمهم الحظ وممن خسروا في رهانهم لايعترفون بأخطائهم وبسوء تقييمهم وتقديرهم عندما قرروا الرهان على الحصان الخاسر ويلقون باللائمة على أصحاب الحصان وكثيراً ما كنت أسمعهم يقولون بغضب "خوات الكح....جَرّوا لحصان".

كان اقتناء الخيول الأصيلة للسباق يدر ارباحا لابأس بها على صاحبها إذا كان يعرف كيف يدبِّر اموره بحكمة ويعتمد على أناس ذوي خبرة وصادقين. فقد كان سعر الجواد الذي كنا نشتريه من العرب اي البدو نحو عشرة دنانير وكنا نبيعه بعد سنة أو سنتين بنحو مائة دينار اذا كان قد نجح في سباقاته. وبعد شرائه كان يودع في طولة (اسطبل) وكان على صاحب الطولة العناية به وعلفه وتدريبه لتصبح له "يد فيه"، أي ان تكون له قائمة من قوائمه الأربع وبمعنىً آخر له الربع. وكان لنا جوادٌ أدهم أطلقنا عليه اسم "مشتاق نعيم"، كنا قد اشتريناه بعشرة دنانير وكان له قصب السبق في أول مباريتين خاضها وذاع صيته وعندها جاء حماد الشَكْرة صاحب الطولة الى والدي وقال له "أبو نعيم (وهي كنية والدي) لازم نْبَنْدَ الحصان ونْدرّهْ للهند" اي يجب علينا أن لا ندعه يشترك بعد الآن في سباقات وأن نرسله الى الهند. ويظهر أن فعل "بَنَّد" دخل هو الآخر من الأنكليزية واشتَقَّ من (باند-to-Band) وتعني الربط. وكان العراق في تلك الأيام يصدِّر من خيوله ألأصيلة الى الهند التي كانت آنذاك مستعمرة بريطانية تجري فيها سباقات الخيل على النمط الأنكليزي كما كان متبعاً في العراق. وفعلاً أرسلنا "مشتاق نعيم" وحصاناً آخر يدعى "بنّاش عامر" الى الهند في سفينة مع حسين الخفاجي صاحب طولة في جانب الكرخ كان لنا فيها عدة خيول. وكانت شهرة حصاننا قد سبقته وعند إرساء السفينة وهو على متنها جاء من اشتراه بمائة دينار. إذ كانت المعلومات عن الخيول المصَدَّرة من العراق ترسل إلى الهند حال إقلاع السفينة التي تقلهم. وكان لنا من "مشتاق نعيم" خير خلف لخير سلف فعندما اقتيد بعد شرائه من مضارب البدو إلى بغداد أُفلِتَ من يد قائده السايس وشبّ على فرس كانت سائبة ترعى في الحقل وكتم القائد الأمر ولم يبح به لأحد إلا بعد أن ذاعت شهرة "مشتاق نعيم" وعندها توجه والدي الى مضارب البدو واشترى نجله وأسمينا ذلك الفلو الوسيم "برق الإله" الذي تفوق هو الآخر في سباق الخيل وبعناه بثمن باهظ.

اما تدريب الخيل فكان يسمى "خَبّ"، إبتداء من المشي العادي "القدم" وحتى بلوغ السرعة القصوى (يدربك) وكان هناك سُلَم للتعريف عن مراحل التدريب استعملوا فيه مصطلح "عانة" واطلقوا مصطلح "١٦ عانة" على المرحلة أو السرعة النهائية و"٨ عانات" للسرعة المتوسطة حيث يطلق العنان للجواد ليجري حسب هواه، اما "أربع عانات" فتعني الجري خَبَباً يعدو فيه الفرس مراوحاً بين يديه ورجليه وكانوا يعرّفون هذه النوع من الجري ب" كيرچال"، لعله اصطلاح إنكليزي. وكثيرا ما كنت أرافق والدي في صباح أيام السبت الى حلبة "الريسز" حيث يجري خَبُّ الخيل لمتابعة تقدّمها وكان الوالد يستعمل ساعة قياس الوقت "stopper" لقياس مدى سرعة الفرس، وكان قَطْعُ المسافة بأقل من الوقت المعدل يشار إليه بثوان فمثلاً إذا وصل الجواد الى نهاية المطاف قبل ذلك بخمس ثوان قالوا "جا خمسة كاصر" واصبح هذا المُصطلح يطلق عند العامة على من يفوز علي منافسيه أو علي من يريدون أن يشيدوا بقدرته ومهارته ويقولون "هذا جا تسعة كاصر".

سلبي

هو اسم جواد أشقر أصيل وجميل كان له ثلاث قؤاثم "مْحَجَّلة" اي أن لون القسم الأسفل من أعلى حوافره على امتداد ما يقارب الثلاثين سنتيمترا كان أبيض ناصعا كما لو كان حجْلاً يتلألأ في رجل امرأة حسناء، كما كانت له "جبهة سيّالة" وهو اصطلاح يُراد به ان صباحة وجهه من عند جبينه امتداداً حتى منخاريه كانت مزينة بنفس اللون الأبيض الناصع مما ازداده حسنا وجمالاً، أضف الى

ذلك انه نال قصب السبق في المباريات التي خاضها في "الريسز". وأتذكر جيداً يوماً من أيام فوزه في السباق، كان ذلك يوم الأحد وهو أحد اليومين في الأسبوع اللذين كان يجري فيهما سباق الخيل في بغداد، أما اليوم الثاني فكان يوم السبت، ففي ذلك اليوم ذهبت بعد الدوام في المدرسة رأساً الى "الريسز" ولم أتناول وجبة الغذاء في البيت واكتفيت بـ"السميط"، وهو نوع من الكعك لذيذ الطعم مغطى بسمسم أُلقي على سطحه قبل خَبزه وهو عجين، اشتريته بفلس عند بوابة دخول الخيل المشتركة في السباق عندما كنت أنتظر مجيء حصاننا. وحين وصوله أسرعت الى خَلْفَ السايس وتناولت منه حزمة "ال كصيل" (القصيل هو الشعير الذي يُحصدُ أخضر لعلف الدواب) وأمسكت بالرسن وأصبحت كأنني من مساعدي السايس وهكذا كان يتسنى لي الدخول مع الحصان إلى "اللوج". جلست على أحد المقاعد في "اللوج" وكانت على شكل مدرَّج أراقب منه الخيل التي بدأت تظهر الواحد تلو الأخر وهي تجري بسرعة متوسطة مستعرضة قدرتها أمام الجمهور قبل أن يحسم رأيه على إيّ من الجياد يراهن. ولم تمض إلاّ دقائق معدودة وإذا بي أرى الوصي على عرش العراق الأمير عبد الأله جالساً مع حاشيته على بعد عدة أمتار منّي وبيده دربين يتابع من خلاله سير السباق الذي يشارك فيه أحد خيوله، وعندما "هَدّت" الخيل (كانت عامة الناس تسمّي الشوط هدّة) لم ينفك الأمير من المتابعة حتى وصولها الى الخط النهائي كما تابعتها أنا، وجاء حصاننا في طليعة الخيل المشتركة في تلك الهدّة وتلاه حصان الوصي فاكفهرت وجوه البعض وامتعضت وانشرحت صدور آخرين وانبسطت أساريرهم، أما أنا فلم أتمالك نفسي وانطلقت راكضاً إلى محل عودة الخيل من السباق ماراً بالقرب من الوصي وحاشيته وإنا أصيح بإعلى صوتي "حْصَانا غُلب، حْصَانا غُلَب"، ولم أكن آنذاك قد تجاوزت الحادي عشر من العمر. وهناك وجدت والدي في استقبال الحصان والجاكي الذي حظي بجائزة مالية منه كما حظي السايس خَلْفَ ومن كان حاضراً من طولة حمّاد الش كرة. ولم تكن هذه المنافسة مع خيل الأمير وحيدة، فقد كانت لنا معه منافسة أخرى في مسابقة الجَمَال للخيل (كَبّ الحسن) تغلبت خيل الأمير فيها على فرسنا التّي كانت فارهة ناصعة البياض كان والدي قد اشتراها لحسنها وجمالها المفرط. والكل كانوا يتوقعون أنها ستحظى بالجائزة الأولى ولكنها دُرجت بالمرتبة الثالثة من قبل المحكّمين الذين منحوا الجائزتين الأولى والثانية لخيل الأمير عبد الأله.

كنا قد اشترينا سلبي وهو يحمل ذلك الأسم غير إلايجابي الدال على النفي ونحن لم نكن نعرف ما هو الدافع الذي كان من وراء هذه التسمية إلا بعد حين، كان ذلك في يوم من الأيام جاء فيه حمّاد الش كرة الى والدي راجياً "أبو نعيم بيعَه لحْصَان" فاستغرب والدي من هذا الطلب واستفسر عن الدافع فأجاب: "إن العرب يؤمنون إذا كانت ثلاث من قوائم الجواد محجّلة دون قائمته اليمنى الأمامية <محجل من الثلاث مطلو ك اليمين> فهذا جواد يأتي بالخير والبركة لصاحبه (صاحْبَه مْبَخْتْ) ولكن سلبي كان <مطلو ك اليسار> لذا فلا يرجى منه خير وسيعاني صا حبه من مصائب وويلات". وعندها فهم والدي المغزى الذي كان من وراء إطلاق هذا الأسم الغريب والغير إيجابي على هذا الجواد الجميل. ولكنه لم يصغ لقول حمّاد واعتبركلامه نوعاً من الخرافات. ومن الغريب والعجيب أن ما جاء في هذا الكلام تحقق، فبعد مدة وجيزة من اقتناء هذا الحصان أخذت سلبياته تعلن ظهورها بآلام بدأ الوالد يعاني منها في العمود الفقري ولم تمضِ سنة حتى وكان أبي من ضحايا الفرهود حيث قتل وشريكه في القرب من باب الشيخ عندما كنا راجعين من زيارة خيولنا ومن ضمنها سلبي في طولة حمّاد الش كرة. وسأشرح لاحقاً حيثيات تلك الكارثة التى حلت بنا وغيرت أوضاعنا ونزلت بعائلتنا الى الحضيض.

جويسم

هو كبير السياس في طولة حمّاد الش كرة، كان عبداً زنجياً متوسط القامة له عينان سوداويتان كبيرتان وشفتان غليظتان وأنف عريض أفطس ورأس مستديرمكسوٌ بشعر اسود حالك كلون بشرته كأنه جلد عنزة سوداء بعد أن جزّ صوفها وكان مرحاً يحب المزح والنكات. ومن مؤهلات السايس أن يكون له القدرة على تربية الخيول وتدريبها، ومن اسمه اشتقت مفردة السياسة. ومفردة "سوس" باللغة العبرية تعني حصان ويظهرأن أصل الكلمة اشتُقَ منها.

جرت العادة عند والدي ان يرتاد مقهىً مطلاً على دجلة "كهوة الشط" أو"قحوة الشط" بلسان يهود بغداد، في مساء كل خميس من الأسابيع التي كانت تجري فيها سباقات الخيل للتداول مع حمّاد الش كرة واشخاص اخرين من أصحاب الخيول وروّاد "الريسز" حول مباريات يومي السبت والأحد القريبين وذلك بعد أن نشرت الصحف سير السباق بما في ذلك أسماء الخيل المشتركة في كل شوط واسم الفارس الذي سيمتطي صهوة كل فرس. وكنا ذات خميس في "قحوة الشط" وكان بين الحاضرين جويسم كبير السياس وكانت أنارة المصباح الكهربائي في المقهى ضعيفة. وعندما كان المجتمعون منهمكين في تحليل الأوضاع وإبداء الآراء جاب المقهى صباغ أحذية ووجه سؤاله الى كل من رواده: "تصبغ؟" وكان جواب الجميع: "لا"، حتى وصل الى جويسم الذي أجاب: "إصبغ". وعندها أنزل صاحبنا تختاً صغيراً مثبتة في جوانبه صفائح تحتوي على أصباغ مختلفة الألوان لمسح الأحذية كان معلقاً على كتفه ووضعه تحت أحد قدمي حمّاد وبدأ عمله بجِد وبعد أن انتهى من "الحذاء" ألأول نقرَ نُقرة خفيفة من تحته ليستبدله بالثاني وعندها انفجر جويسم يضحك بصوت عال أذهل جميع الحاضرين وعلى أثره وجّهَ له والدي السؤال "وْلَكْ جويسم شْبيك؟" فأجابه: "هَلْ أخْ الكَحْ... مَيْبَاوعْ آني حافي شنو تصْبغ؟". أحببت جويسَم لطيب ودماثة أخلاقه وخفة دمه، وكنت عند مجيء أعياد المسلمين أذهب وإياه الى سوق الهرج، بتكليف من والدي، لشراء "زبون وحذاء (يَمَني)" له ببضعة دراهم،

انقطاع حبل السرة

كان الفاتح من شهر حزيران عام ١٩٤١ يوماً مشؤوماً بالنسبة ليهود بغداد. ففي ذلك اليوم واليوم الذي سبقه أذاع راديو بغداد خبر عودة الوصي على عرش العراق الأمير عبد الأله إلى العاصمة بعد أن كان قد فرَّ منها الى عمان الى عمّه اميرشرق الأردن الشريف عبد الله بن الشريف حسين ومكث فيها ما يقارب الستة اسابيع كان العراق خلالها تحت حكومة رشيد عالي الكيلاني التي كانت تحت سيطرة أربعة عقداء عُرفوا بـ "المربع الذهبي" وبدورهم كانوا تحت هيمنة مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني الذي سيطر على الأمور في البلاد وخضع ساسة البلاد وكبار المسؤولين لإرادته وحرَّض ضد الأنكليز وضد اليهود وقاد العراق الى حرب مع بريطانية العظمى أدت الى اندحار الجيش العراقي وهروب المفتي ومن التفَّ حوله الى إيران ومنها ألى إيطاليا والمانيا. وعرف شهرأيار الذي دارت به الحرب بشهر رشيد عالى، وكثرت فيه التحرشات والأعتداءات على اليهود في شوارع بغداد وطرقاتها بما في ذلك ضرب وقتل طعناً بالخناجر والسكاكين مما أدى الى انكماشهم في بيوتهم ولم يغادروها إلاّ لقضاء حاجات وأمور ضرورية وامتنع والدي طيلة ذلك الشهر من الذهاب الى دكانه في سوق القزازين كما امتنع التجار اليهود من مزاولة أعمالهم في الأسواق البعيدة من محلات سكناهم. وأثار نبأ عودة الوصي عند اليهود شعوراً بالانفراج وعمت أوساطهم البهجة والسرور وصادف ذلك اليوم حلول عيد "الشبوعوت" لدى الطائفة الأسرائيلية مما ضاعف ذلك الشعور. ولبى وجهاء العاصمة وأعيانها من مختلف الأوساط والملل بمن فيهم وجهاء الطائفة الأسرائيلية في بغداد نداء راديو بغداد وخرجوا لاستقبال الوصي. وانتفض اليهود من انكماشهم وراحوا يعيِّدون على بعضهم ويتبادلون الزيارات وذهب الكثيرون منهم للنزهة على شواطىء دجلة وفي الحدائق والمنتزهات مرتدين أفخر ملابسهم. اما نحن فذهبنا لزيارة خيلنا في طولة حمّاد الش كرة القريبة من باب الشيخ بعد انقطاع دام أكثر من شهر. كنا أربعة، والدي وشريكه في دكان الأبريسم في سوق القزازين وأخو شريكه وأنا. ركبنا في ضحى ذلك اليوم عربانة قوچ في شارع الأمير غازي (غُيِّر اسمه لشارع الكفاح بعد الأطاحة بالحكم الملكي) أوصلتنا قريباً من طولة حمّاد. قضينا في الطولة عدة ساعات تفقدنا خلالها الخيل وتجاذبنا أطراف الحديث مع حمّاد والسياس وفي ساعات بعد الظهر عدنا قافلين نحوة محلة أيو دَوْدَوْ حيث منازلنا. ركبنا سيارة أجرة "أم العانة" سميت هكذا لأن أجرة السفر فيها لكل راكب كانت "عانة" التي تساوي ٤ فلوس. وجلس مئير شريك والدي في المقعد بجانب السائق وجلس نعيم أخو مئير في وسط السيارة بجانب مساعد السائق الذي كان يسمى "سكنْ" (كلمة مُحَرَّفة من الكلمة الأنكليزية second) وجلس والدي في المقعد الخلفي عند الشباك وأنا إلى جانبه. وعندما اجتزنا باب الشيخ ووصلنا ع كد الأكراد أرغم السائق على إيقاف السيارة من قبل حشود كثيفة من الناس كانت قد تجمهرت وسط الشارع. وحالاً بعدها أقبل نفر من المتجمهرين وفتحوا الباب الأمامي للسيارة حيث كان مئير الذي دلّ لباسه وهيأته على كونه يهودياً وسحبوه من مقعده وانهالوا عليه لكماً ورفساً وضرباً بالعصي والهراوات. ولما راى والدي ما كان يجري تسلل من الشباك وعبر الشارع الى الجهة المعاكسة والبعيدة من الجمهور وحاولت أن ألحق به وأخرجت رأسي وإحدى ساقي من الشباك الذي تسلل منه ولم يبق لي سوى إخراج الساق الثانية وفي تلك اللحظة حرك السائق السيارة وأقلع من المكان وبهذا أنجاني من مصير الوالد وشريكه اللذين لم نرهم بعد ذلك اليوم. كان لوالدي إصدقاء ومعارف في ع كد الأكراد وكان الكثير من النساء يشتغلن في تسليك الأبريسم ويعتشن من عملهن فيه وكنا نأتي بوجبات الأبريسم الى بيوت الع كد ونسترجعها بعد تسليكها بيد نساء الحي وكان تطلق عليهن تسمية "إچيات" وتعني، ربما باللغة التركية، عاملات. ولاشك عندي ان والدي تسلل من السيارة آملاً أن بإمكانه أنقاذ شريكه معتمداً على الروابط والعلاقات التي كانت له مع سكان ذلك الحي ولكن النتيجة المؤلمة كانت فقدان كل واحد منهما.

كانت تلك اللحظات بداية "الفرهود" وهي المذبحة التي كان ضحاياه ما يقارب ال ١٨٠ يهودياً قُتلوا بين عشية وضحاها ومئات جُرحوا ونساء اغتصبن وبيوت ومحلات تجارية تعود لليهود نُهبت.

وكانت تلك الكارثة بالنسبة لي أني أصبحت يتيماً من أب أحببته وأعزّني وانا لم اتعدّ الحادي عشر. وغيرت هذه النكبة مجرى حياتي. وكان ذلك اليوم المشؤوم آخر عهدي بـ"الريسز" وانقطع حبل السرة الذي كان يربطني به وهجرت بعدها الخيل والسباق كما تقطعت من جراء ذلك حبال كثيرة أخرى كانت تربط بيني وبين أشياء وأمور عديدة. ترى هل جلب الفرس "سلبي" الذي كان "مطلو ك اليسار" النحس على والدي كما تنبأ بذلك حمّاد الش كرة؟ فقتل في "الفرهود" وجلب عليّ اليتم، فذلك "الفرهود" كان نكبة حياتي الأليمة، والجواب على هذا اللغز عند علام الغيوب، عند عالم الاسرار علم اليقين، ولكنه لم يكشف الضر عني من لوعة فقدان الوالد الحنون الى اليوم.

عن مجلة بغداد 1965

مدينة المنصور عند تأسيسها وترى ساحة السباق فيها

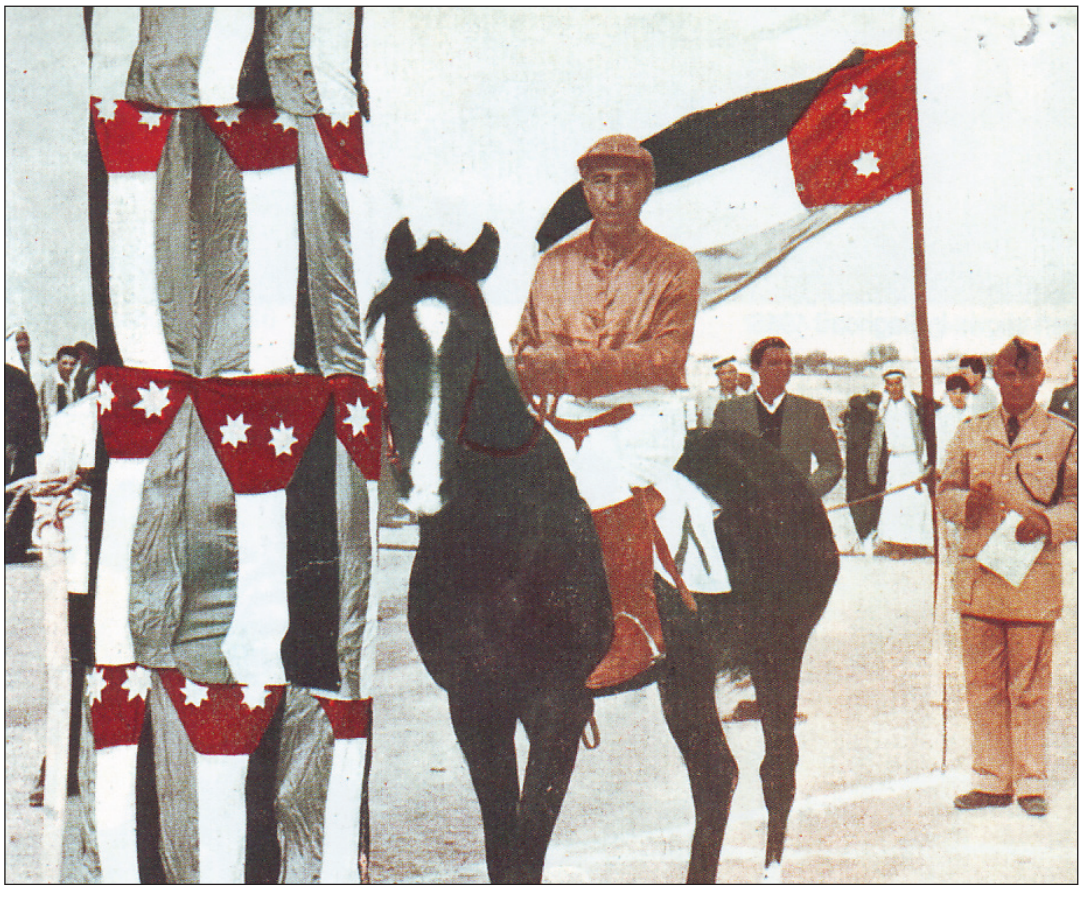

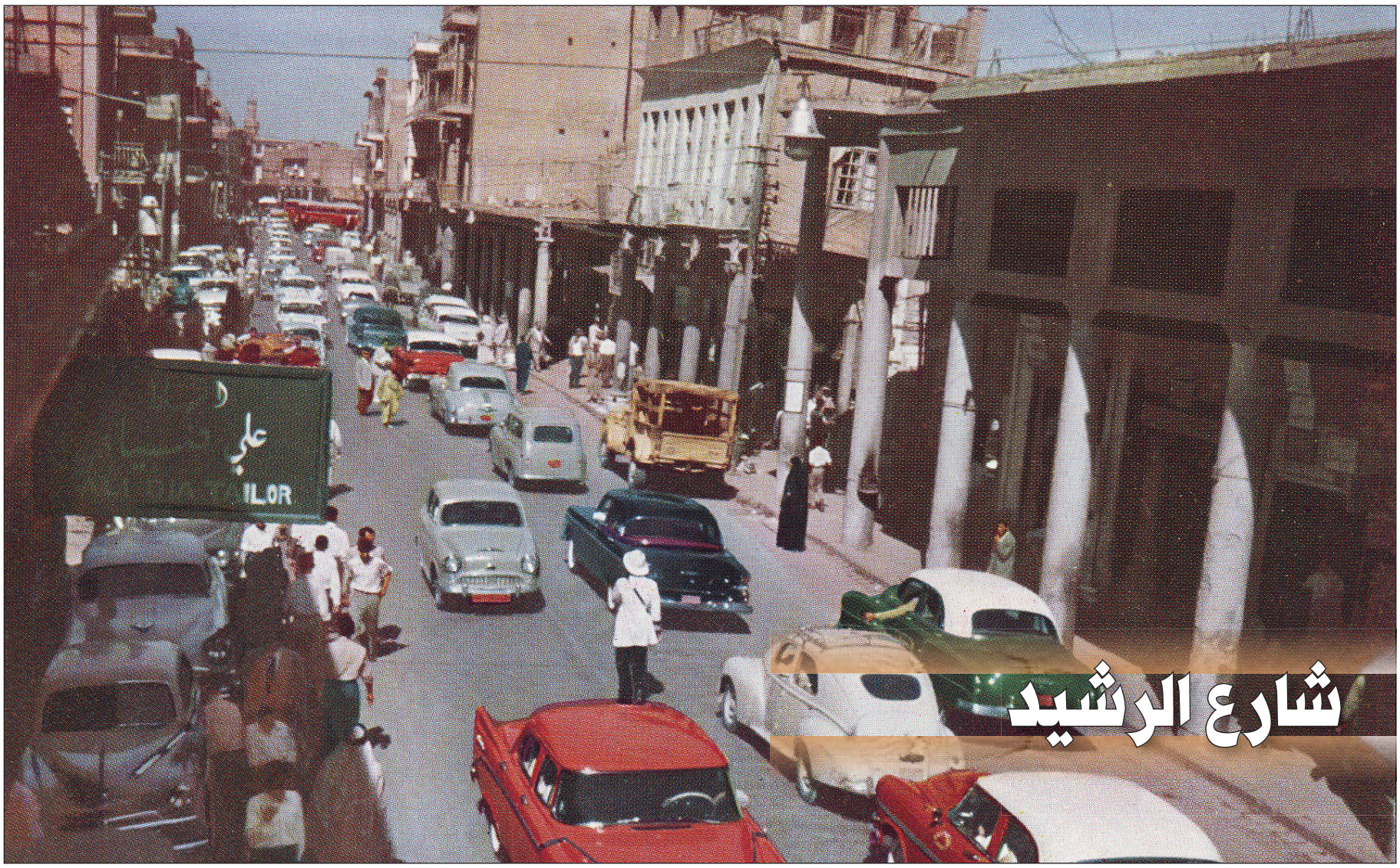

شارع الرشيد

محاولة لاسترجاع ماضيه القريب

جميل الجبوري
كاتب تراثي

اطلق بعضهم على بغداد – في زمن ليس ببعيد – انها المدينة ذات الشارع الواحد، يقصدون شارع الرشيد يوم كان شريان المدينة "ابهر" و"عصبها" النابض بالحركة والحياة.

وعن ذلك "الشارع الواحد" استرجع اليوم ذكرياتي عنه وانطباعاتي وتأملاتي عنه وفي حيواته التي مازالت تعمر الذهن والمخيلة.

و"الرشيد" اقدم شوارع بغداد كما يقول مؤرخوها. من هنا حظي بالاحتفال الذي دعت اليه منظمة اليونسكو لإقامة مهرجانات ثقافية شعبية في الدول الاعضاء فيها تذكر اجيال اليوم بماضيها القري. وقدر تعلق الأمر بتاريخ الشارع: "فلقد بوشر في اوائل سنة (١٩١٦) بشق شارع جديد يبدأ من باب المعظم الى الباب الشرقي. وفي مطلع سنة (١٩١٧) تم إفتتاح الشارع من قبل والي بغداد (خليل باشا). وثبتت بعض الكتابات على جدران جامع (السيد سلطان علي) بالخط الفارسي ومنها: (خليل باشا جاده سي). "ويقول (ادموند كاندلر) – وهو احد الذين رافقوا قوات الاحتلال البريطاني التي دخلت بغداد عام ١٩١٧:

تقدمنا في شارع خليل باشا وهو الشارع الوحيد العريض في المدينة. لقد اطلق عليه اسم (شارع هندنبرك) بمناسبة سقوط الكوت. انه ليس بشارع جميل او جذاب. وكانت عملية تطويره متقطعة واوقات إصلاحه متباعدة.

ويظهر تسلسل الاسماء التي اطلقت على شارع الرشيد في الادوار المختلفة انها.

شارع خليل باشا (خليل باشا جاده سي). وشارع هندنبرك، وشارع النصر والشارع الجديد. ثم "شارع الرشيد.

واليوم، وانا استرجع ذكرياتي عن شارع الرشيد اعود بسنوات عمري الى فترة متقدمة جدا حيث كنت يافعا في مراحل الدراسة المتوسطة الاولى.

واتذكر – فيما اتذكره – اني وجدت نفسي مع الكتاب ووجدته في (المكتبة العامة) وكانت يومها في (باب المعظم) تفصل بينها وبين (حديقة المعرض) بناية وزارة الخارجية وابنية صغيرة اخرى، ولقد وجدت في تلك المكتبة – طيب الله ثراها – حيث لم يبق اليوم من آثارها غير مساحة ارض مهملة – العين الذي ارتشفت من سلسبيله قطرات المعرفة الاولى والملاذ الذي فتح امامي دروباً كنت لا اعرف مساراتها. وان انسى لا انسى يوم ان دخلتها لأول مرة. فلقد استقبلني رجل تبدو على وجهه الصرامة.. وقال:

– ماذا تريد؟

– اريد ان اقرأ

– ماذا تقرأ؟

–لا اعرف بالضبط ياسيدي، كل ما اريده هو ان اتعلم، وهذه مكتبة عامة، واحسب ان لي فيها موضع قدم.

وكاد ان يقتادني من حيث اتيت، ولكن بدأ رحيما – لا اعرف اليوم مع الاسف من كان ذلك الرجل صاحبها – تدخلت، فاوقفت الفض غليض القلب عند حده، ودلتني على الدرب وعلمتني اسلوب الاستعارة والاستفادة.

وهكذا تحولت زائراً مواظبا للمكتبة العامة يعرفني اغلب من فيها ويبادلوني التحية إلا ذلك الحارس العنيد الذي رفض ان يرد تحيتي بعد ان كررتها عليه اكثر من مرة فتجاهلته منتجعا وريا. فهي جميلة مورقة عبقة الاريج، يجد فيها قاصدوها مصاطب صفت تحت الاشجار كنا نلجأ اليها فننتظر موعد افتتاح المكتبة ولذلك كنت تجد كثرة المنتظرين فيها في كل ايام الاسبوع عدا يوم الثلاثاء الذي هو عطلة المكتبة العامة.

ولقد جارت على تلك الحديقة الغناء "الملاهي" نعم، "الملاهي الليلية" التي اقتطعت منها شطرها الارحب وحولته الى "صالة صيفية" لعشاق السحر المخمور والغناء الفج والرقص الداعر!!

وهي رؤيا قديمة – لا شك – تلك التي كنت احسبها مبهرة وانا يافع انتقل في رحاب شارع الرشيد.

ولقد كانت الحركة على اشدها – ولا سيما في الأمامي وساعات الليل الأولى في مناطق معينة من الشارع.. ودعني – فارثي – ، عذراً، ان انتقل معك في الشارع – كما كنت اراه قبلاً – في اليفاعة والشباب – الذي ولى مأسوفاً عليه – مسجلاً رؤياي ايامها في محاولة لاسترجاع ماض قريب.

كانت "ساحة الميدان" اولى ساحات الشارع المكتظة ابتداءاً من "باب المعظم" وفي ساحة الميدان – يومها – حيوات عامرة تعج بالحركة والنشاط في صباحات الايام وتسهر الى ساعات متأخرة من لياليها.

فلقد كان فيها – فيما كان – مقهى البلدية ، وهو ملتقى متفرد لطبقات مختلفة من سكان بغداد – إن جازت التسمية – وللوافدين إليها، ذلك انك تجد فيها حلبة للشعراء وعشاق الكلمة ودعاتها، واخرى لتجار المال والاقتصاد، وثالثة لقايا الماضي من الحالمين في الذكريات.. و.. وحلقات متعددة اخرى تلف تجمعاً متفرداً في دنيا النوادي والجمعيات.

وفي الساحة كانت المطاعم، والمشارب.. وفيها "ملهى الهلال" وفي مقترباتها "سوق كان يبيع اللذة المحرمة لمشتريها" وهي سوق كانت لوحدها مادة خصبة لدارس يريد ان يقف على تفاصيل شريحة مهانة ظلت روحاً طويلا من الزمن في قلبي بغداد حتى آن آوان قطافها فقطفت، ومن ثم اقتلعت من جذورها، وارضها اليوم ساحة وقوف سيارات مصلحة نقل الركاب في منطقة الميدان.

وانت تتوغل في شارع الرشيد وقبلتك الشرق تتوقف عند مقهى صغيرة الحجم ضيقة المساحة ولكنها كثيرة العطاء لما فيها ومن فيها، تلكم هي "مقهى الزهاوي" الواقعة في مدخل "شارع السراي" المتفرع من شارع الرشيد.

ولقد سميت المقهى بهذا الاسم نسبة الى الشاعر العراقي المعروف جميل صدقي الزهاوي الذي كان من مرتاديها الدائمين.. وبالمناسبة نذكر ان للمقهى اخت لها في الاعظمية سميت باسم الشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي الذي ارتادها بعد ان هجر منفاه الاختياري في قصبة الفلوجة وسكن الاعظمية في اخريات سنوات حياته.. وهي لذلك احدث من مقهى الزهاوي كما كانت اقصر عمراً فلقد حولت – مع الاسف – فيما بعد الى سوق يبيع اللحوم والخضر!!.

اما هذه الاخيرة فلا زالت حية ترزق.. ويوم حاول المحاولون قبل شهور قليلة من عام (١٩٨٦) ضمها الى مبنى مجاور انتصر الخيرون لبقائها وتدخلت السلطة – مشكورة – وامرت بتجديدها والحفاظ عليها.. وليت كان الأمر كذلك بالنسبة لمقهى الرصافي.. اقول ليت، بعد فوات الاوان.

معذرة للاستطراد.. اردت ان اقول.. كانت مقهى الزهاوي منتدى للادباء والشعراء وعشاق الكلمة الجميلة.. ولقد شهدت عبر تاريخها وجوها مرموقة في دنيا الادب والفكر في العراق ومازال من روادها نفر من أهل الادب وحملة رسالة القلم.

وعلى مقربة من مقهى الزهاوي يقع "استوديو المصور الاهلي" الذي سجل بالصورة الفوتغرافية معالم بارزة من مشاهد الحيوات البغدادية تعتبر من المراجع المهمة لدراسة تلك الفترة، ولئن بقي "الاستديو" يمارس عمله ويحتفظ بذخائره فقد عفا القدم على مقهى كبيرة كانت تقع قبالته هي "مقهى عارف آغا" وكانت تستقبل شرائح متعددة المشارب من سكان بغداد وزوارها، وفي هذه المقهى عرفت – لأول مرة – طريقة (قراءة الجرائد بالاجرة المقطوعة) وانا صبي في رفقة ابي.

وما ان تتوغل قليلا في الرشيد – الشارع – حتى تلتقي بمقهى اثيرة اخرى تعلن عن نفسها بان صفت اواني النحاس وابارقه في مداخلها بتشكيل جميل ملفت للنظر.. وهي مترفة – يومها – فلقد فرشت الارائك بالسجاد وحرصت على العناية والنظافة لذلك امهتها طبقة من الناس تعطي لكل هذه المظاهر اعتبارها وكان من روادها عدد كبير من الكتاب والشعراء والصحفيين.. ومازالت المقهى قائمة تحتفظ ببعض ذكريات الامس القريب.

وان انس لا انس كيف كان عشاق "شربت الزبيب" يتجمعون في "الصباحات" امام دكان "الحاج زبالة" المجاور للمقهى يتناوله

فطورا مع (الصمون) او عشاءاً خفيفا في مقتبل الليل. ولست ادري لماذا كان لهذا "الشربت الزبيب" نكهة خاصة مزلت اتعشقها حتى اليوم!!.

و"البرلمان" مقهى خامسة كانت تقع في منطقة الحيدرخانة قبالة جامعها المعروف في شارع الرشيد، ولعل من المؤسف ان تجتاحها المخازن والدكاكين اليوم بعد ان كانت منتجع العديد من الشعراء والادباء وارباب القلم، فلقد كان من روادها البارزين شعراء وادباء احتلوا مكانتهم المتميزة في دنيا الثقافة العراقية اذكر منها – مع حفظ الالقاب – بدر شاكر السياب وعب القادر الناصري وكاظم جواد وحسين مردان... كل في موقعه ومرحلته.. رحمهم الله وطيب ثراهم وما خلفوا.

وغير "مقهى البرلمان" كانت "مقهى احمد فتاح" في ساحة لعاقولية حيث ينتصب تمثال الشاعر الكبير معروف الرصافي اليوم، فهي الفاصلة بين شارعي الامين والمأمون المتعامدان على شارع الرشيد والمفضي اولهما الى الجسر القديم الموصل الى جانب الكرخ وثانيهما الى شارع غازي (الكفاح اليوم) يوم لم يشق بعد شارع الجمهورية الذي سمي حديثا بشارع الخلفاء.

وساحة العاقولية هي التي تتفرج عليها ازقة محلة "القره غول" مولد الرصافي الكبير ومنتجع صباه، وفي هذه المحلة نشأت واحدة من اعرق المدارس الاهلية التي كان لها دورها البارز في تعليم الكثير من ابرز رجالات العراق المعاصرين، اعني مدرسة التفيض الاهلية التي قاد مسيرتها خالد الذكر "الاستاذ حسين العاني" وفي ساحة العاقولية كان ينتصب ابرز مظهر من مظاهر الحيوات البغدادية في ماضيها القريب.. بائع اكلة "الابيض وبيض" الذي رحل وما رحلت ذكراه، فما زال الفولكلوريون يصفون مائدته العامرة بانواع "الطرشي" المتميزة وجموع الناس تتسابق لتتناول لفة.

وصيف مقهى "احمد فتاح" كان خصباً في ارضه وسمائه.. فسطح المقهى يحاكي بعض سطوح مقاهي محلة الميدان التي تتخذه لراحة الزبائن في الليالي القائضة يوم لم يعرف التبريد الحديث بعد. ولذلك امه العديد من عشاق السحر البريئ ومن المنتظرين ادوارهم في سينما "الحمراء الصيفي" التي كانت تعرض – حصراً – الافلام المصرية والتي كان مشاهدوها يؤلفون جمهوراً عريضا من الناس ير "ما يرد فيها من نكات ويترنم باغانيها ويستمتع بالرقصات الشرقية التي كانت – وربما مازالت – تثير الكوامن وتبعث في النفوس شوقا ورضا.

وتكاد المنطقة المحصورة بين ساحة العاقولية (الرصافي اليوم) و(جسر مود) – جسر الاحرار ساحة الوثبة اليوم – منطقة تجارية، سوق الصفافير والشورجة وشارع البنوك ومخازن التجار. وتكاد تكون (سينما الحمراء الشتوي) هي المنتجع الوحيد لعشاق اللهو في هذه المنطقة، وكانت تقع جوار بناية (البنك المركزي) – الجديدة – اليوم، وهي الاخرى كانت تعرض الافلام المصرية، لا بل كانت تعرضها اولا لتعرض بعد ذلك في دور السينما الاخرى.

وعند وصولنا الى مقتربات "جسر مود" في شارع الرشيد .. كان هناك "ارشاك" المصور الفوتوغرافي المتفنن والذي كانت واجهة محله معرضا للمتميز من تلك الصور.. ولم يقف الرجل عند فن التصوير الفوتوغرافي فحسب، فلقد بحث في مشكلة "المياه الجوفية" في احياء العاصمة العراقية وتوصل الى اختراع لمواجهتها ونال عليه "براءة الاختراع" الرسمية، وعلى مقربة من كان استوديو "عبوش" المصور الفوتوغرافي الفنان والذي كان له في من الفوتوغراف رؤيا خاصة تبتعد عن الكسب والحرفة وتقترب من الابداع والجودة.. رحمه الله.

وفي المنعطف الموصل الى الجسر كان مطعم وكازينو "شريف وحداد" الذي تميز – يومها – بين المطاعم والمشارب، وكانت تحاذيه – اقرب الى شارع الرشيد – مقهى معلقة – اي على السطوح – يمارس فيها روادها لعبة "البلياردو" ويقفون من اجل ذلك صفا ينتظرون ادوارهم بصبر نافد.

وانت إن توغلت في "الرشيد" الشارع "واجهت "عمو الياس" على يسارك في مسيرتك الى الباب الشرقي، والسيد "الياس" لبناني محترف الطي وهو أول من قدم مواد الاكلات اللبنانية في العاصمة العراقية، كذلك كان من اوائل من ادخل "الديكور الحديث" في المطعم العراقي.

ثم على امتداده.. سينما الرشيد – عطر الله ايامها الحلوة – ففيها شهدنا افلاما مازالت في الذاكرة.. وان انس لا انسى الفلم الامريكي، البحث – الذي اعتمد علم النفس في المعالجة والذي كان – يومها – حديث جمهرة المثقفين، والمتعلمين.. والمدعين، ايضا!.

وليست هي مفارقة ان يواجهك "جامع السيد سلطان علي" على مقربة من موقعك – على اليمين – فالرشيد شارع.. وفيه مافي الشارع من جد ولهو..

وان لم انس "البحث" – الفلم – فلا انسى على جدار الجامع لافته من الطين الفخور بلون "تركواز" ارخت لـ :خليل باشا جاده سي، وخليل باشا هو الوالي العثماني الذي شق الشارع الذي منحه اسمه وهو اليوم شارع الرشيد – كما سبق واشرنا – وابعد منه قليلا كانت "المقهى البرازيلية" التي تحكي ترف المقاهي – ايامها – ويرتادها نفر مختار تقدم لهم قهوتها "الشكرني" البرازيلية، وتحت الخطى.. يسر في شارع الرشيد.. ويستوقفنا مكان احسب ان له اليوم – في عوالم التسجيل التراثي لبغداد في امسها القريب – مكانة ما.

انه – "بار عنتر" – وما كان كأي من امثاله، ذلك ان "عنتر" يبقى مميزا في كل الاحوال.. بطلا، وشاعراً، وعاشقا مولها وعنواناً لمشرب يقدم الخمرة لطلابها من "سماور" الشاي!! ويسقيهم الراح صرفا من "حنفيته" .. ويالها من متعة لعشاق الخيال الخمري المجنح يالها!.

ولا جديد اذكره بين "بار عنتر" والباب الشرقي، فنادق فخمة.. "مود" و"تايكراس بلاس".. ومحال كبيرة تبيع السيارات الجديدة والماخزن تبيع بـ "الثمن الباهض" ملابس وعطور وزينة للنساء وللرجال، منها الكبير والصغير وما بينهما..

حتى تقودنا الخطى الى "الباب الشرقي" خاتمة المطاف مودعين. زقاقا فرعيا فيه سينما "ريكس" و"روكسي" و"ملهى ليلي" ومقهى ومتشابهات كثيرة اخرى.

فشارع الرشيد – كان – ينتهي عند ساحة هادئة – اقرب الى الظلمة في الليل – منها الى النور، وفي الساحة هذه كان "معرض مخلفات الملك" فيصل الأول "وقبالته بناية "اعدادية الصناعة". كما كان ينتصب في مؤخرتها – مواجها حديقة الملك غازي – تمثال "عبد المحسن السعدون" رئيس الوزراء العراقي الذي انتحر عام ١٩٢٩ بسبب حراجة ما كان يعانيه من ضغوط قوية من "الانكليز" – اصحاب السلطة الحقيقيين – يومها – والناس الذين ينشدون التحرر والرفاء. فلم يقو الرجال على المواجهة وانهى حياته..

وتمثاله – هو ذاته – الذي ينتصب اليوم في شارع السعدون قرب ساحة النصر، واذ نحن نذكر "حديقة الملك غازي" الوارفة الظليلة والتي كانت منتجع عشاق الهدوء والراحة و"التجلي" نذكر ايضا "سينما غازي" – طيب الله ثراها- ففيها، تتلمذنا على الافلام الخالدة حتى اليوم، والتي ستبقى – فيما احسب – زمنا اخر طويل طويل ذهب مع الريح، واغنية شهرزاد، والسباحات الفاتنات ، ورمل ودم. والقمر فوق ميامي، وغيرها كثير، كثير.. مما لا نجد له اليوم – مع الاسف – شبيها ولا نظير..

الرحالة البريطانيون في العراق حقائق وطرائف

بذلت بريطانيا مساعي كبيرة لتثبيت نفوذها في العراق عن طريق كسب زعماء المجتمع العراقي ومنهم زعماء العشائر، وكان لدوائر المخابرات العسكرية والسياسية دور بارز في هذا المجال من خلال عملائها الذين كانت ترسلهم بصفة سائحين واثاريين.

أن أول اشارة وردت عن رحلة قام بها مسافرون انكليز في مناطق العشائر العراقية كانت عام ١٥٨٣ وكانت هذه الرحلة من بيرا (وهي بدون شك بيره جك) إلى الفلوجة . كما ترك اثنان من الرحالة البريطانيين وصفا لثورة شيخ المنتفك ثويني واحتلاله البصرة في ٢٥ تشرين الأول ١٧٨٧ وهما وليم فرانكلين والدكتور توماس هاول.

لقد جلبت العشائر العراقية انتباه السلطات البريطانية وخاصة في القرن التاسع عشر فكان الرحالة الإنكليز يجوبون مناطق العشائر العراقية ومنها رحلة الكابتن كينير J. Kinnier في سنة ١٨١٣-١٨١٤ وقد نشر وقائعها في كتاب أصدره في لندن عام ١٨١٨ وقد شملت رحلته مناطق عديدة من كردستان والموصل ومناطق أخرى . وفي سنة ١٨١٦ زار جيمس بيكنغهام مناطق اليزيدية في سنجار والشيخان وقدم وصفا لمناطق سكناهم وأوضاعهم الاجتماعية، واتصل بأحد شيوخ العشائر المخيمة على الطريق بين مناطق اليزيدية والموصل. كما تجول بيكنغهام في مناطق العشائر في كردستان ونزل ضيفاً عند أحد أغوات اربيل . كما قدم بيكنغهام وصفا لأحوال العشائر في جنوب العراق .

وفي عام ١٨١٧ قام المقدم وليم هود W. Heude وهو من منتسبي كلية مدارس العسكرية بزيارة إلى العراق شملت بغداد والسليمانية واربيل والموصل . كما قام عدد من السياسيين والعسكريين البريطانيين بزيارة للمناطق الكردية في شمال العراق لاسيما السليمانية وأطرافها زاخو وعقرة والزيبار بهدف جمع المعلومات عن تلك المنطقة .

ومن جملة السياح البريطانيين الذين زاروا العراق جيمس بيلي فريزر في عام ١٨٣٤ وقد وصف عشائر المنطقة الكردية وقراها ومنها ابراهيم خانجي إحدى القرى الكردية التابعة لرستم أغا احد رؤساء الأكراد . كما زار مخيم عشائر زبيد وبعض العشائر الأخرى في المنتفك وسوق الشيوخ وقدم خلالها وصفا جغرافيا لسكن العشائر العراقية .

ومع تدهور الأوضاع التي صاحبت ثورات العشائر الجنوبية وخاصة عشائر الفرات الأوسط فقد استطاع احد الرحالة الانكليزي لوفتس Loftus في عام ١٨٥٠ من اجتياز أراضي قبيلة الخزاعل . وفي هذا الصدد ايضا فقد اقترح الرحالة البريطاني جيري لسلامة الطريق بين بغداد والحلة والمسيب في معرض إشارته إلى معركة بين عشيرتي بني يسار والمكاسيب عام ١٨٨٧ إنشاء قوة خيالة من العرب أنفسهم وجلب الشيوخ إلى صف الحكومة بدفع الرواتب اليهم وجعلهم موظفين حكوميين ومسؤولين عن سلامة الارواح والممتلكات التي تمر في المناطق التي تقطنها عشائرهم .

وشكلت العشائر الكردية مكانة بارزة من وجهة نظر بريطانيا بعد ان اعتقد الإنكليز بأنها ستشكل سلاحا بوجه الروس. كما ركزت الجاسوسية البريطانية نشاطها بين القبائل الكردية القاطنة في العراق. فقد قام النقيب ماونسل Maunsel بجولات في شمال العراق في عامي ١٨٨٨ و ١٨٩٢ زار خلالها دهوك والعمادية والزيبار واربيل والموصل .

أما رحلة الميجر سون E. soan فكانت ايضا من مخططات الجاسوسية البريطانية لذلك فقد أخفى سون القصد الحقيقي من رحلته بإخفاء شخصيته وتنكر باسم ميرزا غلام حسين الشيرازي والذي استقر به المطاف في حلبجة قرب السليمانية حيث استقبلته عادلة خانم زوجة عثمان بك الرئيس الأعلى لعشيرة الجاف. ولم يكن غريباً ان يقوم جيش الاحتلال البريطاني في العراق بارسال سون إلى السليمانية كمستشار للشيخ محمود عندما امتد الاحتلال البريطاني ليشمل السليمانية . وقد تضمن الكتاب الذي أعده الميجر سون ملحقاً على القبائل الكردية وفروعها ومواطنها على الحدود العثمانية – الفارسية .

وفي عام ١٩٠٩ وصلت إلى العراق شخصية بريطانية قدر لها ان تلعب دورا مهما في تاريخ العراق المعاصر، وهي الرحالة والاثارية المس غرترود لثيان بيل G. Bell . فقد ابدت اثناء زيارتها اهتماما بالنظام العشائري وقامت بزيارة عدد من التجمعات العشائرية ذات الاهمية السياسية والاجتماعية فقد زارت العشائر العراقية القاطنة في حوض دجلة، ومنها الجبور وقيس والموالي وطي وزبيد وبني تميم وغيرها. كما زارت القبائل الكردية في شمال العراق والاقليات غير المسلمة التي تسكن المنطقة الشمالية كالنصارى واليزيدية وغيرهم . وأمضت سنة كاملة في خيام البدو عند قبيلتي شمر وعنزة ، ومن الذين التقت بهم على سبيل المثال فهد بك الهذال شيخ قبيلة عنزة، كما أقامت علاقات كبيرة مع عدد كبير من الإقطاعيين . وقد مهدت هذه الزيارات السبيل أمامها لأقامت علاقات واسعة مع زعماء العشائر ووجوهها وأفرادها وهذا ما ساعد في عملها أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى فيما بعد.

كما استطاع جواسيس الإنكليز الذين طافوا العراق قبل الحرب العالمية الأولى بسنوات ان يوثقوا علاقتهم الودية ويغدقوا العطايا الوفيرة على رؤساء عشائر الفرات الأدنى والأوسط بشكل خاص وان يضمنوا تعاونهم مع الجيش البريطاني وكان في مقدمة هولاء الكولونيل ليجمن Leachman الذي زار العراق عدة مرات خلال الفترة ١٩١١-١٩١٣ .كان ليجمن يستهدف في زيارته إلى العراق في الدرجة الاولى بعث عوامل الفرقة والكره ضد العثمانيين في صفوف القبائل العربية معتقدا ان ذلك سوف يؤدي إلى تقويض النفوذ الالماني المتزايد، وقد حاول ايجاد منزلة لنفسه بين القبائل الثائرة وشيوخها الناقمين فشق طريقه إلى مضايف رؤساء القبائل والعشائر، فكان فهد بك شيخ عنزة ممن التقى بهم ليجمن . كما زار ايضا مخيمات العشائر الكردية، ففي اليوم الاول من شهر حزيران اجتاز الريف الذي تقطنه عشيرة الهماوند .

عن رسالة (السياسة البريطانية في العراق)

جامعة الموصل

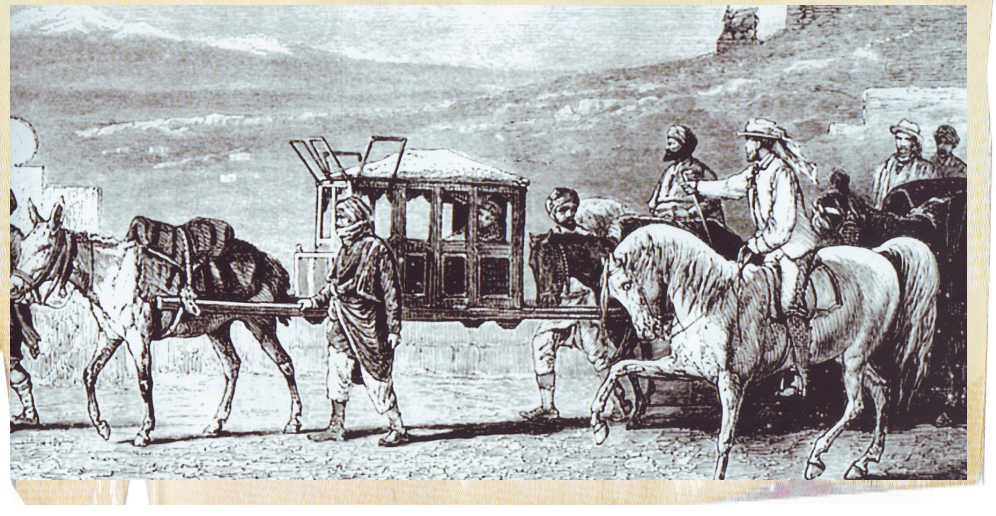

كوارث الاوبئة والمجاعات في الموصل في اواخر عهد العثمانيين

عروبة جميل

شهدت الموصل مجاعات عديدة كتلك التي حدثت في عامي ١٧٩٤ و١٧٩٥ ، حيث ترافق غزو الجراد مع موجات البرد فأكل الجراد ثلث مزروعات قرى الموصل فيما أتلف البرد زروع قرية اخرى ، وفي حزيران عام ١٧٩٥م غزا الجراد الموصل وأتلف محاصيل الحبوب من الحنطة والشعير ، والتهم محصول القطن المزروع في اطراف الموصل وشهدت الاسواق غلاء الاسعار .

وفي عام ١٧٩٩م ظهر الجدري في مدينة الموصل وظهرت أول اصابات بالمرض في محلة خزرج ، ثم أخذ يسري نحو المحلات الاخرى ، واستمر هذا المرض الخطير يفتك بأرواح الناس حتى منتصف شهر صفر سنة (١٢١٥هـ/١٨٠٠م) وبلغ عدد المصابين الذين لقوا حتفهم في اليوم مائة وثمانين نسمة ثم انتقل الى كركوك والسليمانية .

وفي عام (١٢١٥هـ/١٨٠٠م) سرى الطاعون في اكثر احياء الموصل ، وبلغ عدد الذين لاقوا حتفهم في اليوم "مائة وثمانون او اقل خمسة" . وغلت الاسعار وكان اغلب الضحايا الذين يموتون من النساء والاطفال وهرب العدد الكثير من اهالي المدينة الى القرى المجاورة . ويذكر العمري في غرائب الاثر ان والي الموصل محمد باشا الجليلي قد ذهب الى سنجار لمحاصرة المتمردين من اليزيدية وخلال عودته الى الموصل علم بوجود المرض فخشي على جيشه فأبقاه خارج المدينة . وقد علق العمري قائلا : "انه رأى رجلا من العساكر بعيد عن الناس خوفا من القرف ولما نفعه الخوف" .

والى جانب هذه الاوبئة فقد شهدت الموصل عام ١٨٢١م انتشار مرض الكوليرا (الهيضة) واول ظهور له كان في البصرة . واخذت الكوليرا تفتك بارواح الناس وقد اطلق الناس عليه داء (الزوعة) او الهواء الاصفر .

اما عام ١٨٧٨م الذي عانت الموصل فيه من الغلاء الشديد فقد عرف عند اهالي الموصل باسم (غلاء الليرة) وقد سقطت امطار غزيرة في هذا العام ، وكان الموسم الزراعي يبشر بالخير الوافر والرخص . ولكن قبل موسم الحصاد ، هبت رياح سموم لافحة أحرقت الزروع فضلا عن موجات البرد القارص حتى جمد نهر دجلة ، وتعذر جلب الحنطة من بغداد وديار بكر ، فازداد الضيق بالناس ، حتى اضطر بعضهم الى اكل لحوم الحيوانات النافقة ، ومات خلق كثير جوعا ووجعا لأكلهم الجيف .

وفي عام ١٨٩٦-١٩٠٠م غزا الجراد الموصل فاتلف زروع قريتين في اطراف الموصل الشمالية باستثناء قرية جكان (حاليا غمرت هذه القرية بمياه سد الموصل) . وبسبب ذلك ، تأخر المزارعون في هذه القرية عن زراعة محصول القطن وكان مقدار المزروع منه عشرة وزنات من حب قطن وبسبب غزو الجراد ، تأخر زراعة القطن في الموصل على نحو عام .

اما في عام ١٩٠٦م فقد تفشى مرض (ابو هدلان) في قرى الموصل الذي اخذ يصيب الماشية ولا سيما الابقار ، وحال اصابة الابقار بهذا المرض ، يضطر المربون الى ذبحها مما يؤدي الى ارتفاع اسعار اللحوم وغلائها ، وبالتالي يؤثر في المستوى المعاشي لأهالي الموصل .

ولم يقتصر الامر على تفشي المجاعة والامراض ، فقد اسهمت السلطات العثمانية الى حد كبير في خلق الازمات المعاشية والاقتصادية في صفوف الاهالي وعملت على مصادرة الحبوب منهم من خلال المضايقات وعمليات الاستحواذ عليها لسد النقص في قطاعات الجيش في سنوات الازمات والحروب من أعيان المدينة ووجهائها بسبعة تفارات حنطة .

وفي عام ١٣٣٠ رومية/١٩١٥م غزا الجراد ثانية الموصل فأكل الحنطة والسمسم .

وبلغ أمر المجاعة درجات الموت المحقق لاغلب اهالي الموصل ، مما دفع بعضهم الى اكل لحوم الكلاب والقطط فضلا عن تجميع دماء الذبائح لغرض تجميدها وتناولها طعاما ، حتى وصل الحال بأحد شهود العيان لوصف حالة المجاعة بقوله : "شاهدت بأم عيني مرة في الطرق هرا يهرب راكضا من دار الى دار أمام المعقبين له حتى قبضوا عليه" .

وسرى الجوع حتى على الحيوانات فمات الآلاف منها على حساب بني البشر وكثيرا ما كان الرجال والنسوة الفقراء يتسابقون الى جمع جثث الحيوانات النافقة ، بعد ان يطردوا عنها الكلاب الجائعة ليقطعوا لحومها ويعبئوها في اكياس ويعودوا الى بيوتهم بكل بهجة وسرور ليطبخوا فيسدوا رمقهم تخلصا من الجوع .

ووصف روفائيل بطي وهو شاهد عيان بقوله : "رأيت بأم عيني جماعة من المهاجرين الذين رحلوا الى الموصل ... يتكالبون على تقطيع اشلاء بغل نافق جروه من الشارع" .

كان وراء تفشي المجاعة في الموصل اسبابٌ عدة منها ، رداءة الموسم الزراعي لعام ١٩١٧ مع تضافر موجات الثلوج ترافقت مع البرد الشديد والتي بدورها أدت الى موت اعداد كبيرة من الماشية واتلاف معظم المنتجات الزراعية ، صاحبها التزايد الكبير في احتياجات القوات العثمانية من المواد الغذائية ولا سيما بعد انسحابها جنوب العراق وبغداد وفقدانها للكثير من المؤن مما دعاها الى مصادرتها من الاهالي ، ومما زاد الامر سوءا توافد المهاجرين باعداد كبيرة من شرق تركيا بصورة خاصة وكان معظمهم من الاكراد اثر تزايد المذابح الاهلية خلال سنوات الحرب العالمية الاولى ١٩١٤-١٩١٥ اذ دخلت اعداد كبيرة منهم شمال العراق ولا سيما الموصل . وكان من النتائج الخطيرة للمجاعة وفاة عشرات الالوف من السكان والقوات العثمانية ، وتفشى امراض الكوليرا والطاعون والتيفوئيد .

وقد أثرت المجاعة تأثيرا خطيرا في اهالي الموصل ، اذ عمد بعضهم الى سرقة اطفال الآخرين والقيام بذبحهم واقترنت تلك الجريمة باسم المجرم المدعو عبود بن علي جاويش بن توفيق بالتعاون من زوجته المدعوة عمشة بواسطة ولدهما بقصد اللعب معهم ومن ثم استدراجهم وقلي لحومهم وتم الكشف عن جريمتهما عندما كانا يقومان ببيع طعام مكون من اللحم ما يعرف لدى اهل الموصل بـ (القلية) ، مما اثار دهشة الناس لوجود اللحم في سنة المجاعة ، فاخبروا السلطات المختصة وبعد التحري اتضح ان المجرم يقوم بذبح الاطفال وقلي لحومهم وبيعها للناس ، وكانت هذه من افظع الجرائم التي حصلت في مدينة الموصل جراء تلك المجاعة .

وقد الحقت هذه المجاعة اذى اقتصاديا كبيرا باهالي الموصل حتى انهم اسموها بسنة (الليرة)، وذلك لفقدان الثقة بالليرة الذهبية التي لا تستطيع ان توفر لقمة العيش ، لا بل وصل الامر الى حد الاستغاثة والصراخ في الطرقات والازقة

بقولهم (خاطر الله جوعان) ، فهذه العبارة تُسمع يوميا في مدينة الموصل في سنة المجاعة وارتفعت اسعار الحبوب ارتفاعاً فاحشاً حتى بلغ سعر وزنة الحنطة ان التي تساوي (١٣,٥) كيلو ثلاث ليرات ذهبية وهذا يعني ان اغلب اهالي الموصل كانوا في مواجهة المرض والموت .

وقد اسهمت في تفشي المجاعة عوامل عديدة منها :

١. قانون المبيعات العثمانية :

وكان يجري تطبيق هذا القانون في الارياف اذ يؤخذ من المزارعين مقدار (١٠/١ العشر) من الناتج الكلي لغرض تمويل قطعات الجيش العثماني ، اذ كانت رسوم العشور تطبق بطريقة المزايدة العلنية ، للراغبين القيام بتنفيذ هذه المهمة ، كانت تهيء التموينات الغذائية لصالح السلطات العثمانية وقد شهد موسم الانتاج الزراعي لعام ١٩١٧ انحسارا او نقصا في واردات الانتاج من الحبوب ، بسبب هجمات الجراد على المناطق الزراعية وانخفاض التموينات المعدة لتموين الجيش العثماني عام ١٩١٨ ، ولذلك اصدرت السلطات العثمانية قانون المبيعات والذي نص على استحصال (١٠/١ عشر) اضافي من واردات الزروع الى جانب استحصال العشر الرسمي المنصوص عليه في القانون مما الحق خسائر فادحة بالمزارعين ، وادى الى هجر مزروعاتهم ، والاقتصار على ما يسد حاجاتهم من المواد الغذائية المخزونة في بيوتاتهم ، ومن هنا ظهرت بوادر المجاعة في مدينة الموصل .

٢. ضرائب التكاليف الحربية:

وكانت هذه الضرائب تستحصل على نوعين اما ان تؤخذ من اهالي الموصل عينية او نقدية ، وتختلف مقاديرها باختلاف البضائع والعقارات وانواع الحرف والمهن ، وظهر الاحتكار جليا في تجارة المدينة ، وخصوصا ما بين المضاربين والمستغلين من المحتكرين بالتواطؤ مع المسؤولين الاداريين العثمانيين ، مما ادى الى تركيز الثروة في أيدي هؤلاء على حساب الغالبية من اهالي الموصل ، وفقدان السيولة النقدية وضعف القدرة الشرائية لدى معظمهم .

٣. توافد الهجرات على الموصل :

هاجر الى ولاية الموصل اعداد كبيرة من الارمن والاكراد من بلاد الاناضول ابان سنوات الحرب العالمية الاولى ، وتزامنت هجرتهم مع انتشار المجاعة في المناطق الواقعة في شمالي مدينة الموصل ، اذ قدر عدد المهاجرين الارمن ممن دخلوا قصبة الموصل ما يقارب ثمانية آلاف نسمة ، وكانوا يعانون من الجوع وشظف العيش ، وقدموا مدينة الموصل بحثا عن لقمة العيش ، اذ كان الجوع يطاردهم اينما حلوا ناهيك عن هجرة اعداد كبيرة من الاكراد وتوافدهم الى الموصل حيث بلغ عددهم تقريبا (٧٠,٠٠٠) شخصا ابان سنوات الحرب العالمية الاولى .

وقد وصف احد شهود عيان الصورة المأساوية للمجاعة آنذاك ، بقوله : "كنت اثناء مكوثي في الموصل أطوف في شوارع المدينة وازقتها ، اشاهد فقراءها المهاجرين منتشرين في الطرق والاسواق ، والبعض منهم يتخفون تحت دكاكين البقالين والخبازين يتصيدون المشترين فما ان يشتري شخص لوازمه من الدكان سواءً خبزا او سمنا او غير ذلك ويدفع ثمنها الى البائع حتى يخرجوا من تحت الدكاكين ويهاجمونه ويسلبوه كل ما اشتراه ، وكان بعض هؤلاء الجياع ... يتعاركون فيما بينهم ويغتصب كل واحد منهم اللقمة من فم رفيقه ويدخلها الى فمه بطريقة لم أر مثلها طوال حياتي ... وكنت اشاهد مأموري البلدية ومعهم الحمالين ... يجمعون جثث الميتين جوعا في كل صباح ومساء كأنما يجمعون الحطب والنفايات" .

ومن آثار المجاعة التي حلت في مدينة الموصل ، انتشار ظواهر النهب والسطو على اموال الاهالي وممتلكاتهم وخصوصا عند شيوع الاخبار بان بعض التجار احتكروا المواد الغذائية ولذلك تشكلت عصابات منظمة للسطو على مخازن المواد الغذائية او على بيوت التجار لغرض الحصول على الغذاء ، ففقد الامن في المدينة ولذلك عمد اصحاب الاموال والمواد الغذائية على حراسة ممتلكاتهم سواء الموجودة منها في بيوتهم او في دكاكينهم للتصدي لتلك العصابات التي تريد السيطرة ونهب المواد الغذائية .

وانعكس الوضع الامني المضطرب على تمرد اهالي القرى الخارجة عن النطاق الجغرافي لمدينة الموصل عن طريق عدم دفع الضرائب للعثمانيين جراء تلك المجاعة ، فقد امتنع اليزيديون القاطنون في منطقة سنجار عن دفع الضرائب والعشور منذ عام ١٩١٧ ، فحصلت مواجهات مع العثمانيين للقضاء على تمردهم في عام ١٩١٨ . وفضلا عن ذلك برزت ظاهرة نهب المسافرين وتسليبهم ، وخصوصا بعد لجوء الارمن الى مناطق اليزيدية ، وقد حددت هذه الحالة عن طريق برقية بعث بها الناظر طلعت باشا الى مركز ولاية الموصل في شهر كانون الثاني عام ١٩١٧ ، والتي تضمنت "اعلمتنا متصرفية دير الزور ان الارمن الموجودون داخل اللواء والذين فروا سواء اثناء عمليات السوق بطريقة اخرى ، قد اجتازوا (ولاية الموصل) عن طريق البادية والتجأوا الى اليزيدية الذين قدموا الحماية لهم ، وبدأوا بالتجاوز على المسافرين، ابلغونا عن عدد اليزيدية هناك وهل انهم اتحدوا مع الارمن لاتخاذ التدابير اللازمة لمنع تجاوزهم" .

وفي استعراض لمدى ارتفاع الاسعار والغلاء الذي ساد مدينة الموصل في فترة المجاعة يمكن الاشارة الى ان اسعار المادة الاساسية للعيش المتمثلة بالخبز ارتفعت اثمانها الى ثلاثة اضعاف ، اذ ان الحنطة بلغت من الندرة والشحة بحيث اصبح بيعها حسب الاوزان التي يعتمدها العطارون في بيع موادهم ، وارتفع ثمن رغيف الخبز الواحد الى اكثر من قرش واحد . وفي هذا الصدد ، وفي سنة ١٩١٨ ، ارتفعت اسعار المواد التموينية والغذائية بنسب عالية جدا بحيث اصبح سعر (وزنة الحنطة)(×) مرتفعا بنسبة (٢٦٠٪) ، كما ارتفع ثمن وزنة الرز بنسبة (٢٥٠٪) ، والشعير بنسبة (١٦٠٪) ، وفي ذات الوقت ارتفعت اسعار السكر والشاي الى ثلاثة اضعاف .

وبلغ سعر وزنة الحنطة الموصلية الى (٢٠ مجيدي) ، وبلغ سعر الطن الواحد من الحنطة قبيل انسحاب القوات العثمانية من الموصل قرابة (٤٠٠ ليرة ذهبية) ، وتجدر الاشارة الى ان التجارة بالحنطة كانت تتسم بالسرية وذلك للخشية من معرفة الجهات العثمانية التي غالبا ما كانت تصادرها . وفضلا عن ذلك ، فان نقل البضائع التجارية من داخل الموصل الى خارجها ، او جلب البضائع من خارج الموصل الى داخلها ، وقد تعرضت الى قطاع الطرق وهذا يوضح مدى الفوضى التي حصلت ابان الحكم العثماني في عدم القدرة على توفير اسباب الحماية للتجارة ، ومنها تجارة الملح ، التي يتعرض تجارها الى رسوم تستحصل بشكل غير رسمي من قبل عشيرة شمر ، اذ كانوا يستوفون رسم مرور مقداره الف وخمسمائة قرش مقابل كل قافلة تحمل الملح تحت مسمى (الخوة) ، التي تعني استخدام القوة في الحصول على رسوم تجارية غير قانونية من قبل بعض العشائر العراقية .

ومن شواهد المعاناة التي كابدها أهل الموصل في فترة المجاعة ما بين عامي ١٩١٧ – ١٩١٨ حين لجأ مؤولي الادارة العثمانية الى اسلوب التعسف في تحصيل الضرائب فغالبا ما كانوا يسيطرون على المؤن الغذائية في حالة عدم دفع ضرائبها ، لا بل وصل الامر الى اقتحامهم البيوت واخذ الغلال والاموال ان وجدت . اضافة الى ان العثمانيين وفي شهر تشرين الاول عام ١٩١٤ فرضوا ضريبة المجهود الحربي ، التي بلغت نسبتها (٥٠٪) على الاملاك العقارية و(٢٥٪) على الاراضي والعشور ، الى جانب فرض على كل فرد ان يدفع جزءاً مما يملكه من المواشي والحبوب الى المسؤولين العثمانيين ، كما فرضوا على اثرياء الموصل رسوم وضرائب نقدية ، وفي حالة امتناع اهالي الموصل عن دفع تلك الضرائب فانهم كانوا يتعرضون للاهانة ، واحيانا للضرب ، ناهيك عما كان يفعله جباة الضرائب الذين يختلسون الاموال المستحصلة من الاهالي ، وهذا ما اثار استياء معظم اهالي الموصل الذي عبر عنه الغلامي ، الذي كان شاهد عيان ، قائلا : "ما كنا نمر في طريق او نستقر في مكان الا ونسمع انواع الكلام المنبعث عن التذمر من تلك الحالة السيئة وشدة الرغبة في جلاء الترك عن البلد والتشوق الى دخول الانكليز فيه رجاء انقاذهم مما هم عليه وتخليصهم مما صاروا اليه ..." . ان هذه الصورة التي طرحها الغلامي تظهر مدى الصعوبات التي واجهها الاهالي جراء السياسة التعسفية للولاة العثمانيين الا ان رغبتهم السريعة بدخول المستعمرين الجدد من الانكليز حالت دون اعطاء صورة ايجابية بان عهد المستعمر البريطاني سيكون افضل من العهد العثماني ، اذ اتخذ البريطانيون اجراءات اقتصادية سريعة على المستوى التجاري ساعدت على استمرار حالة العوز المادي لدى اهالي الموصل ، فقد طبق البريطانيون شروطا قاسية على حركة البضائع والسلع التي يقصد تجارها مدينة الموصل والوافدة من مناطق عدة ، ذلك عن طريق فرض رسوم عن كل بضاعة تدخل مدينة الموصل، وفي حالة شحن البضائع والسلع من مدينة الموصل والعاصمة بغداد كان على التاجر ان يظهر الوثائق في دائرة الرسوم وهذا يعني دفع رسوم اضافية على البضائع ، مما يؤدي الى ارتفاع اسعار المواد الغذائية .

وفي اثر سياسة المستعمرين البريطانيين الاقتصادية ، ارتفعت اسعار المواد الغذائية والمستلزمات المنزلية الى اضعاف عدة اذ ارتفعت اسعار الاقمشة منذ عام ١٩١٦ الى ثلاثة اضعاف قياسا لسنة ١٩١٣ ، كما ارتفعت اسعار الشموع بنسبة اربعة وخمسة اضعاف ، كما شمل الارتفاع المواد التموينية والغذائية بخاصة اذ ارتفع سعر الخبز الى ثلاثة اضعاف قياسا بفترة ما قبل الحرب .

ولم يقتصر الامر على اوضاع الموصل في عهد الاحتلال البريطاني على ذلك ، اذ عانى الموصليون من سوء معاملة قوات الاحتلال ، فقد كان الجندي البريطاني يسير بالطرقات الموصلية ولا يتردد لشتم او ضرب أي احد من اهالي الموصل حتى وان كان من أعيان المدينة ، ولم يقتصر الامر على ذلك اذ بدأ جنود الاحتلال البريطاني مصادرة ما يرغبون به من الدكاكين باسلوب ما يسمونه (المهبة – بخشيش) ، كما انهم لم يترددوا بالتحرش بالنساء الموصليات ومحاولة الاعتداء عليهن .

الحارس الليلي "البصوان"

عبد الكريم عناد

الغاية:

قد لا اكون مغاليا اذا قلت ان هذا الموضوع – الجرخجي "الحارس الليلي" – من اكثر المواضيع التراثية التصاقاً في اذهاننا عندما كنا اطفالا في الثلاثينيات لما تركه في اذهاننا من ذكريات يختلط فيها صوت صافرة الحارس الليلي من رهبة تمتزج بهمهمات وسعال المستطرقين ليلا من العائدين من العمل والسكارى الذين تلفظهم اخر الليل حانات الخمر والملاهي باصواتهم العالية غير المهذبة واغانيهم وقهقهاتهم السمجة.

ومارسخت في نفسونا ودمائنا من ذكريات عنها وقناعة في حينها بأن الحارس الليل كان الرمز الذي يمثل الامال والطمأنينة لعيون الاطفال البريئة القلقة التي اجهدها التحديق في ظلام الليل الذي تتراقص ظلاله مع خفقات مرتعشة من ذبالات الفوانيس او اللمبات التي اتبعها خفق هواء الشتاء البارد واوشك (نفطها) ان ينفذ، وهي ترسم اشكالا وصورا نحار مخيلة الطفولة في تفسيرها وبالتالي الضياع في متاهات من التصورات المقلقة للاشباح التي لا تنقطع الا بصوت الصافرة مهدهداً جفونا سطا عليها النعاس لتغفو نائمة يحرسها رجل قوي لا يخاف الاشباح ولا يهاب الطناطل.

ولذا فأنني عندما اريد ان استعرض هذا الموضوع اكون قد قمت وبشكل متواضع في رسم صورة قد تكون متكاملة لرجل امتهن السهر ليلا على سلامة ابناء وطنه والحفاظ على ممتلكاتهم من السراق (الحرامية) وبالتالي بعث الامان والطمأنينة في نفوسهم المتعبة من اعباء النهار وتبعاته لتنام مسترخية هانئة وماوصلت اليه في نفوسهم هذه الوظيفة في وقتنا الحاضر من شكل متطور في السهر والحفاظ على راحة المواطنين من شرطة متخصصة ساهرة تجوب الطرق والشوارع ليل نهار بوسائط نقل متطورة لتؤدي خدماتها باسرع ما يمكن.

من هو الحارس الليلي؟

وقد ينطبق على معنى الحارس الليلي لفظة لعسس التي سادت ايام الخلفاء الراشدين وتعني الافراد الذين يقومون بالطواف ليلا في الازقة لحراسة الناس وكشف اهل الريبة.

وبعد ذلك نجد ان لفظة "الشحنة" واصلها في اللغة هم طائفة من الجند يقيمهم الملك او الامير في المدينة او البلدة لضبطها، غير ان الواقع اللغوي والاصطلاح وبمرور الوقت جعلت "الشحنة" تطلق على الامير منذ ايام الدولة السلجوقية في اواسط القرن الخامس للهجرة او اواخره واشتق من الشحنة اسم لوظيفة "الشحنة" هو "الشنكية" ويذكر المرحوم العلامة مصطفى جواد بهذا الخصوص قائلا: "وبقي هذا الاصطلاح الى ما بعد سقوط الدولة العباسية بالعراق، ففي ايام سقوطها الاولى عين المغول لنصارى بغداد شحاني حرسوا بيوتهم وبعد زمان طويل انتقل لفظ الشحنة الى ناطور بيدر الحنطة او الشعير وقد استدرك المرحوم العلامة مصطفى جواد علي جمع الشحنة بشحاني بقوله "وهكذا اورد كتاب الحوادث صفحة ٣٢٩ جمع الشحنة في هذا الجزء والصواب شحنات للقلة وشحن للكثرة، لان التاريخ لايمكن ان يبدل".

اما تاريخ تأسيس قوة الحراس الليليين في العراق – وهم المستخدمون في اعمال الحراسة في الشوارع وفي الطرق والاسواق داخل حدود بلديات المدن والقصبات – الى عهد الاحتلال البريطاني، فقد استحدثت مع تشكيلات الشرطة في ابتدائها. وقد سماهم قانون اصول المحاكمات الجزئية الصادرة في سنة ١٩١٨ بالحفراء العموميين.

وقد نص الباب الرابع من القانون اعلاه على وظائف الحراس ثم نصت المادة (١٤٧) من مجموعة تعليمات الشرطة لسنة ١٩٢٤ على بعض الاحكام الادارية المتعلقة بالحراسة الليلية واطلقت عليهم اصطلاح (العسس) وهم نفس الخراء العموميين والحراس المذكورين.

وبعد صدور قانون ضريبة الحراس الليليين رقم ٣٢٥ لسنة ٩٢٤ (قد نص في المادة الخامسة منه على تخويل امانة العاصمة والمجالس البلدية بان تضع احكاما فيما يتعلق بوظائف الحراس الليليين، وروابتهم والمراقبة عليهم بصورة عامة) كما ان قانون تعديل القانون المذكور لسنة ١٩٣٦ قد نص في المادة الاولى منه على تطبيق الاحكام الانضباطية الخاصة بالشرطة على الحراس الليليين من قبل سلطات الشرطة بتخويل من مجلس امانة العاصمة او المجالس البلدية. ثم صدر قانون الغاء القانون المذكور رقم ٢٣ لسنة ١٩٥٢، فاصبح الحراس تابعين الى ادارة الشرطة مباشرة وبناء على قرار مجلس الوزراء نقلت المخصصات المرصدة لرواتبهم من ميزانية البلديات في الاولية وامانة العاصمة في بغداد الى الميزانية العامة في فصل تابع الى ميزانية الشرطة بعنوان (٧٩/ ب نفقات الحراسة الليلية) تمهيدا لجعلهم قوات شرطة تابعة الى قانون خدمة الشرطة وانضباطها رقم ٤٠ لسنة ١٩٤٢ وتعديلاته.

ومما تقدم اعلاه نجد ان التسمية القانونية هي "الحارس الليلي" ولكن امين المميز في كتابه – بغداد كما عرفتها – ص١٣٧ يذكر لنا لفظة (الجرخجي – الاقشمجية والصبحجية، في غير الاوقات المقرر لهم). والمتعارف عليها عام ١٩١٦، والتي تطلق على الحارس الليلي، وهذا معناه ان هذه التسمية كانت معروفة في عهد الاحتلال العثماني حيث يذكر لنا الدكتور حسين علي محفوظ في العدد السادس – السنة الاولى من مجلة التراث الشعبي ص ٣٧ بغداد – ١٩٦٤ في مقالة الموسوم بـ (الالفاظ التركية في اللهجة العراقية) ان لفظة جرخة جي تعني الحارس.

وهناك لفظة اخرى تطلق على الحارس الليلي وهي بصونجي وقد ذكر لنا الدكتور حسين علي محفوظ ص ٣٦ ايضا ان لفظة "بصونجي" وباسوانجي" لفظة تركية مستخدمة في اللهجة العراقية ايضا وتعني الحارس الليلي.

وقد اتحفتنا الاخت الفاضلة ناجية غافل المراني في مقالها الموسوم بـ (الواشي بين القريض والشعبي) المنشور في ص ٧٠ من مجلة التراث الشعبي العدد ٣٠٢) سنة ١٩٧٤ حيث ذكرت لنا لفظة النوبجي من معرض رسم الشاعر العامي لصورته اذ يقول

وشلون اشوف هواي
داروا عليه سور
والكفل من بولاذ
والنوبجي يدور

وباعتقادي ان لفظة النوبجي هي نفسها التي ذكرها لنا الدكتور حسين علي محفوظ في المقال السابق مار الذكر على انها من الالفاظ التركية في اللهجة العراقية.

مقابلة شخصية مع احد الحراس الليليين القدامى

لي خال يدعى عباس صالح العقبي، ادرك الثمانين من العمر، وقد كان في الثلاثينات من هذا القرن حارسا ليليا، استطاع من خلال ما علق بذهنه من ذكريات بهذا الشأن ان يقول:

عندما دخلت بغداد لأول مرة قادماً من الحي وعلى وجه التقريب في عام ١٩٢٦ وقد استهوتني الحراسة الليلية في حينها كمكسب اضافي لما اعمله نهارا رغم ما تتطلبه من مشقة وسهر فقدمت عريضة الى مدير الحراس في حينها المدعو (ابو زكي) اطلب فيها تعييني كحارس ليلي وكانت الموافقة في حينها تتطلب الشروط التالية:

أ- السلامة من الامراض والعاهات المانعة من اداء هذه الخدمة بموجب تقرير من هيئة طبية رسمية.

ب- حسن السلوك والسمعة وعدم المحكومية بجناية او جنحة مخلة بالشرف.

ج- حيازة الجنسية العراقية بالولادة او التجنيس بها بعد مرور خمس سنوات.

د- عدم خضوعه لخدمة العلم.

هـ - يرجح من سبقت خدمته في قوات الشرطة والجيش او حراسة السجون لان هؤلاء لهم كفاية في استعمال السلاح الناري.

وتمت الموافقة لتوفر الشروط اعلاه وارتبطت في مركز الشرطة (القلع) القسم الثالث في ابي سيفين وعينت في محلة تدعى "كنكيجة" وموقعها حاليا في المنطقة التي تلي الشورجة حاليا وباستقامة سوق الشورجة بعد شارع الخلفاء (الجمهورية سابقا) وحتى شارع الكفاح (شارع غازي سابقا)، وكانت حدود منطقة حراستي ابتداءا من نهاية سوق الشورجة مرورا بالعكد الذي يمر بمنطقة كنكجية الي ابي سيفين وحتى علوة شيخ عمر (قديما) وكان الاجر اليومي للحارس الليلي في حينها (٤٥ فلسا) (اي براتب شهري لايتجاوز الدينار والثلثمائة وخمسين فلسا) والذي نستلمه من ابي زكي والذي يجلس في غرفة خاصة له في القشلة وكان يوزع الرواتب على حراس القسم الثالث كل رأس شهر.

تسلمت من عريف الشرطة شارة الشرطة (النجمة الخماسية) ويضعها البعض على العكال والبعض الاخر على الصدر كما تسلمت صارفة وقطعة نحاسية دائرية برقم ٧٩ (يخصص لكل حارس رقما) وتفكة قديمة من النوع القديم ذات الزناد الشلخ (الترباس) ومن البنادق: التركية القديمة او الانكليزية مع خمسة اطلاقات واخبرني بان الحارس الليلي المناوب لي هو موسى الساعدي حيث استلم منه واجب الحراسة بعد الساعة الثانية عشر ليلا. وفي الساعة السادسة صباحا اذا كنت (مصبحجي) ويستلم هو مني بدوره التفكة والعتاد اذا كنت اقوم بواجب الحراسة (اخشمجي).

وعندما ينتهي دور المصبحجي يتوجب عليه تسليم البندقية والعناد الى مأمور المشجب في المركز ويعطي تمام خبر بان منطقته ليس فيها حادث وعلى هذا الاساس يتبادل الحارسان المناوبان الواجب مرة صباحا ومرة مساءً.

اما بخصوص كيفية اجراء الحراسة في المنطقة فتبدأ من الوقت المخصص وذلك بالتجول في المنطقة وهو يلبس الملابس الخاكي (حيث يتوجب على كل حارس شراء بنطلون خاكي مع سترة ذات ازرار نحاسية وعلى حسابه الخاص حيث كان سعر البنطلون في حينها ٥٠ فلساً والسترة كذلك وعليه ان يشتري لابجين "بسطال" (حذاء) مع جراز (وهو عبارة عن عصا خشبية رفيعة من جانب بها حلقة جلدية لمسكها منها بيده وجانب اغلظ قليلا مرصع بمجموعة من المسامير الصفراء العريضة الرأس) وعليه ان يشتري معطفا خاكي او بلون اخر شتاء، واثناء تجواله يضع خنجرا في حزامه مع علبة جلدية صغيرة يضع الاطلاقات الخمسة فيها وان يعلق البندقية على كتفه وان يضع الصافرة في جيب سترته بقيطان يعلق كتفه الايمن، وعليه مراقبة ابواب الملحة وان ينبه اصحابها في حالة بقائها مفتوحة ليلا وكذلك ينبه على الدكاكين غير المقفولة.

وان يقوم بين حين واخر بالرد (بالصفير) بصافرته عندما يسمع صافرة الدورية التي تخصص من افراد الشرطة لمراقبة الحراس والمؤلفة من خريف ونفرا شرطة والتأكد من انجازهم واجباتهم او الرد على صافرة مفتش الحراس المدعو (شلال) مع حارسين ليليين ليقوموا بواجب التفتيش الليلي على الحاس الليليين والتأكد من تواجدهم في مناطقهم المخصصين للحراسة فيها.

وهكذا تحفظ اسلحة الحراس نهاراً في مشجب السلاح في المركز (قلع) او المخفر التابعين اليه وتوزع عليهم قبل غروب الشمس من قبل عريف دوريات المركز او العريف الخفر ويفتش بدوره على الاسلحة والعتاد قبل ارسالهم الى الواجبات المعنية لهم، ويدون في سجل المركز اليومي اسماء الذين حضروا منهم وتسلموا سلاحهم وعتادهم كما يشرح في السجل الغائبين ثم يتسلم العريف نفسه او من يخلفه تلك الاسلحة بعد انتهاء الحراس من واجباتهم مع تدوين ما قد لحق بالسلاح او العتاد – من ضرر ونقص – في السجل المذكور واجراء التحقيق حالا مع الحارس الذي يسبب ضررا او عارضا بسلاحه او نقص بعتاده.

توفيق وهبي والجمعيات الثقافية

هيوا حميد شريف

من الجوانب الثقافية الاخرى التي عمل فيها الاستاذ توفيق وهبي، هي مساهمته في النوادي والجمعيات الثقافية واشتراكه فيها وذلك بغض النظر عن مكوناته القومية، وبدأ مشواره في هذا المضمار مع بداية الثلاثينات من القرن الماضي.

وكان أول ناد ثقافي انضم اليه وهبي، هو (يانەی سەركەوتنی كوردان – نادي الارتقاء الكردي) ويعد هذا النادي من النوادي الثقافية الكردية التي عمرت طويلاً، حيث استمر لمدة ثمان وعشرين سنة (١٩٣٠ – ١٩٥٨). جرى افتتاح هذا النادي في بغداد في ٣٠ آيار ١٩٣٠، وذلك بعد حصوله على الاجازة من وزارة الداخلية بموجب القرار المرقم (٦٨٩٥) في ١٩ آيار من نفس السنة، وقد اقيمت حفلة افتتاحية في سينما (رويال) في بغداد بحضور عدد كبير من الشخصيات الكردية وغير الكردية وعدد من اعضاء مجلس الاعيان، واختير لادارة النادي خيرة المثقفين الكرد، أمثال (محمد أمين زكي) ومعروف جياوك وآخرين.

مع أن هدف النادي في الظاهر كان ثقافياً بشكل عام، كنشر العلم وتثقيف الشباب الكردي وما الى ذلك، وعلى الرغم من تأكيده في منهاجه على عدم التدخل في السياسة بوصفه نادياً علمياً يعمل في سبيل ترقية مستوى الشبيبة الكردية العلمي والاخلاقي، إلا أنه في الواقع كان يتدخل بصورة سرية وباشكال مختلفة في الامور السياسية، فقد كانت له علاقة مع كل من الجمعيتين السياسيتين خويبوون و (هيوا – الامل).

أما نشاط وهبي في هذا النادي، فانه لم يكن من مؤسسي النادي في البداية، ومن المرجح ان يعود ذلك الى وجوده في السليمانية –حيث كان متصرفاً هناك– أثناء تأسيس النادي المذكور، إلا أنه اشترك في السنة التالية –أي سنة ١٩٣١– ولاسيما في الانتخابات التي قام بها النادي المذكور، لانتخاب لجنتين من أعضائها، لجنة للمنطقة وأخرى للإدارة، ورشح وهبي نفسه في لجنة الادارة، فحصل على المرتبة الاولى بين المرشحين في هذه اللجنة، ومن حينها أصبح عضواً بارزاً في هذا النادي، واستمرت عضويته فيه الى حين اندلاع ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

وخلال عضويته في هذا النادي، قام وهبي بنشاط ثقافي ملحوظ، وذلك في اشرافه على الدورات الخاصة لتعليم اللغة الكردية، وتدريسه لهذه اللغة ولهجاتها والاملاء الكردي بالحروف العربية واللاتينية، حيث كان يجري تدريسها على المشاركين في هذه الدورات مرتين في الاسبوع. وقد شاركت في هذه الدورات فئات مختلفة من الناس، وهناك من يقول ان الملك فيصل الثاني (١٩٥٣-١٩٥٨) ايضاً، قد تلقى دروساً لتعليم اللغة الكردية عند وهبي، ولكن ليس معلوماً أنه أخذ دروسه في تلك الدورات أو في مكان آخر.

وخلال الاجتماع الذي عقده أعضاء نادي (سەركەوتن – الارتقاء) في ٢١ كانون الثاني ١٩٥٦، جرى انتخاب الهيئة الادارية الجديدة له، ولم يكن وهبي بين المرشحين في هذا الانتخاب، الا ان الهيئة الادارية الجديدة، قررت انتخابه رئيساً شرفياً للنادي.

ومن الجمعيات الثقافية الاخرى التي أسهم وهبي في تأسيسها هي (كۆمەڵەی لاوان – جمعية الشباب) التي أسست في بغداد سنة ١٩٣٣، وكان لوهبي دور كبير في تأسيسها وادارتها، ولا سيما أن جميع اجتماعات الجمعية كانت تجري في داره. ولم يصدر عن هذه الجمعية الا عدداً واحداً من مجلته باسم (ديارى لاوان – هدية الشباب)، ومن انشطتهم الاخرى هو عنايتهم بكتابة اللغة الكردية.

ومن النوادي العراقية التي اشترك فيها وهبي مع احدى وثلاثين شخصية عراقية مثقفة، تأسيس (نادي القلم). ففي أحد أيام موسم الربيع عام ١٩٣٤، اجتمع ببغداد نخبة من اصحاب القلم من الادباء والشعراء والمفكرين والمؤلفين العراقيين – ومن ضمنهم وهبي –وكان هدفهم وضع اللبنة الاولى لصرح ما يسمى بنادي القلم بوصفه فرعاً لهذه المؤسسة الادبية والثقافية التي لها فروع في كثير من دول العالم المتمدن في النصف الاول من القرن الماضي.

وبعد اجتماعين توصل المشاركون الى اختيار اعضاء الهيئة المؤسسة لتلك المنظمة الادبية والفكرية والاجتماعية، وكانت على الوجه الآتي: جميل صدقي الزهاوي رئيساً ومحمد فاضل الجمالي نائباً للرئيس ومتي عقراوي أميناً للصندوق وابراهيم حلمي العمر سكرتيراً. وبعد أن حصل النادي على الاجازة الرسمية في تشرين الاول ١٩٣٤، عقد مؤتمره الاول، وقد فاز محمد رضا الشبيبي بالرئاسة ومحمد فاضل الجمالي بنيابة الرئاسة.

ويعد تأسيس نادي القلم العراقي حدثاً ثقافياً بارزاً في النصف الاول من القرن الماضي، لانه أول منظمة ثقافية تمثل الادب الذي ظهرت مؤسساته بعد باسم (اتحاد الكتاب أو الادباء) وكونها أقدم نادي قلم في منطقة الشرق الاوسط. أما هدف النادي المذكور– كما جاء في نظامه الداخلي – فهو يرمي الى تعارف المؤلفين وحملة الاقلام في العراق وتعزيز الروابط بينهم وتعضيد البحث، ولا يتدخل في السياسة.

وعند تأسيس المجمع العلمي العراقي عام ١٩٤٧، أختير وهبي عضواً فيه، وهو الكردي الوحيد الذي حصل على عضوية هذا المجمع تقديراً لمنزلته العلمية. كما انتخب نائباً أول لرئيس المجمع، في ١٢ كانون الثاني ١٩٤٨. واستمر وهبي في عضويته لهذا المجمع حتى استقالته منه في شباط ١٩٤٩. وقد أصدر المجمع المذكور مجلة باسمه، أي مجلة (المجمع العلمي العراقي)، ونشر وهبي موضوعاً في عددها الاول باسم (القصد والاستطراد في أصول معنى بغداد). وفي شهر آيار ١٩٥٨، بادر وهبي بتأسيس جمعية ثقافية عراقية تسهم في النهضة الادبية، وعقد أول اجتماع لهذا الغرض في داره، وحضره فريق من رجال العلم والادب، وقرروا في حينه تأسيس (جمعية التأليف والترجمة والنشر)، واختير وهبي رئيساً لهذه الجمعية، وقامت الجمعية المذكورة باصدار مجلة باسم (الكتاب)، ولم يصدر عنها الا عددين، أولها، في حزيران ١٩٥٨، وثانيهما في الشهر التالي –أي بداية شهر تموز من السنة نفسها–، وذلك بسبب قيام ثورة ١٤ تموز، حيث أدت الى حل الجمعية واختفاء المجلة. وقد نشر وهبي في العدد الاول منها مقالة بعنوان : (أصل اسم كركوك)، أما في عددها الثاني فقد نشر مقاله الموسوم (قلعة كيانة في شمال السليمانية). وعندما أسس المجمع العلمي الكردي في بغداد في حزيران ١٩٧١، اختير وهبي من قبل هذا المجمع عضواً فخرياً فيه، ثم نشر عدداً من مقالاته في مجلة المجمع (كۆڕی زانیاری كورد – المجمع العلمي الكردي)، التي تصدر تحت اشراف المجمع، منها : (أصل الاكراد ولغتهم)، و (أصل اداة الصيغة (ئه) –المضارعة– في لهجة السليمانية). كما أهدى وهبي الى الجمعية المذكورة (٣٥٠) كتاباً ثميناً عام ١٩٧٢، وكان معظمها باللغتين الانكليزية والالمانية، وذلك عند استقباله لاحد اعضائها في داره في لندن.

عن رسالة (توفيق وهبي ودوره السياسي والثقافي) جامعة الموصل

وهبي واسرته الكريمة

الشيخ محمود الحفيد

في العهد العثماني

عندما كان ضابطا في الجيش العثماني

" الخاتون " المس بيل في بغداد (٣-٣)

نجدة فتحي صفوة
مؤرخ ومترجم ودبلوماسي

الجنرال مود أخطأ في اعتراضه علي تعيين امرأة.. والملك فيصل كان يدعوها بـ أختي ويستشيرها دائما

أحبت وطنها إنكلترا.. وعاشت بعاطفتها مع العراق

تغير السياسة

ولما قررت الحكومة البريطانية تغيير سياستها في العراق، ارتأت اعادة السير بيرسي كوكس بصفة مندوب سام لتنفيذ هذه السياسة الجديدة، وتأسيس حكومة ذات واجهة عربية، تدار .حسب قول مس بيل .بأيد عراقية وأدمغة بريطانية. وعلي أثر عودة السير بيرسي كوكس الي العراق، غادره آرنولد ويلسن في ايلول (سبتمبر) ١٩٢١، وكتبت مس بيل: .. كان الاسبوع الماضي مزدحما بحفلات التوديع لآرنولد ويلسن، وفي الليلة السابقة لمغادرته جاء لتوديعي، وقلت له انني أشعر بخيبة لا استطيع وصفها، وانني آسفة في الواقع لأننا لم نتمكن من جعل علاقاتنا افضل. اجاب انه جاء ليعتذر، فقاطعته قائلة: انني واثقة ان الذنب كان ذنبي بقدر ما كان ذنبه، وانني اتمني ان لا يغادر حاملا في صدره ضغينة نحوي، فأجابني مبادلا عاطفتي التي ابديتها بالمثل. اما ما كان يدور في فكره عن الأمر كله فعلم ذلك عند الله وحده . ويبدو ان ما كان يدور في فكر ويلسن حقيقة هو نفس ما قاله لها، وانه كان صادقا فيما ابداه لها من عواطف. فقد كانت غيرترود بيل تكتب رسائلها وهي ما تزال تحت تأثير احداث الساعة، وما تتركه من غضب وتأثر، فتعكس بذلك حالتها النفسية الآنية، وقبل ان تبتعد عن الاحداث بدرجة تسمح لها باعادة التفكير في الامور بصورة عقلية هادئة. اما آرنولد ويلسن فقد كتب رأيه في غيرترود بيل بعد ذلك بسنوات، وفي وقت كانت فيه غرترود بيل قد غادرت هذه الدنيا، وذلك في كتابه بلاد ما بين النهرين: بين ولاءين ، فأشاد بمواهبها وخدماتها، وختم ما كتبه عنها بقوله: هل كان ذلك بين أهلها في انكلترا، ام في رياض طهران التي احبتها كثيرا، ان مست شفتيها احلام المسيح للمرة الاولي بنداء حي صادر عن هيكله؟ ذلك ما لا اعلمه، ولكنني مؤمن بأنها كانت موهوبة حقا لتخدم علي حد سواء البلد الذي ولدت فيه، وذلك الذي اتخذته موطنا، بقدرة وحماسة نادرتين بقدر ما هما ثمينتان .

وكتبت مس بيل بعد مغادرة ويلسن، مرة اخري الي ابيها قائلة: أشعر منذ مغادرة ويلسن كأنني خرجت من كابوس وأشارت في رسائلها التالية الي اخطاء ويلسن في مسؤوليته التاريخية التي أساءت الي مصالح بريطانيا، وأثارت الشعب العراقي ضدها: انني اشعر، بصورة اعمق فأعمق، كم كان ويلسن مخفقا بصورة مفجعة في فهم الوضع، وكم اساء بقصر نظره الي فرص النجاح. انني اعرفه من تجربتي الشخصية بأنه لا ذمة له، وكسياسي اعتقد انه عاد بأكبر ضرر يمكن ان يعود به فرد من الافراد.وقالت في رسالة اخري: انه أثار الشعور القومي، واستخف بقوته، واساء فهمه تماما. ان ويلسن مسؤول عن واحد من اكبر الاخطاء السياسية التي ارتكبناها في آسيا.. . وعلي الرغم من ان كلا من غيرترود بيل وويلسن تحدث احدهما عن الآخر في كتبه، وسجل رأيه فيه بصراحة، فمن الطريف ملاحظة انهما لم يطلعا علي رأي بعضهما في بعض.

فقد نشرت رسائل مس بيل في سنة ١٩٢٧، وكان ويلسن علي قيد الحياة، ولكن تلك الطبعة من رسائلها كانت منقحة ولم ينشر فيها شيء من تعليقاتها علي الاشخاص الذين كانوا لا يزالون علي قيد الحياة، وبضمنهم ويلسن.

ولما نشر ويلسن كتابه بلاد ما بين النهرين: بين ولاءين في سنة ١٩٣٠، ودون فيه رأيه في غيرترود بيل، كانت هي قد توفيت قبل ذلك بسنوات. فلم تطلع علي ما كتبه ويلسن عنها. ولما صدرت الطبعة الجديدة من رسائل مس بيل في سنة ١٩٦١ التي تضمنت ما سبق ان حذف من الطبعة الاولي، كان ارنولد ويلسن ميتا. فقد انتهي الأمر بآرنولد ويلسن بعد مغادرته العراق ان عين مديرا لشركة النفط الايرانية، ثم عاد الي انكلترا فانتخب نائبا في مجلس العموم. ولما نشبت الحرب العالمية الثانية تطوع للخدمة في القوة الجوية وهو يقارب الخمسين من عمره، وقتل في سنة ١٩٤٥ وهو يقاتل بطائرته فوق برلين، فمات دون ان يطلع علي ما جاء في رسائل غرترود بيل عنه. وكان ارنولد ويلسن قد عهد الي المس بيل خلال عملها معه بوضع تقرير شامل عن الوضع العام في العراق وما وقع فيه من احداث منذ الاحتلال البريطاني، فأعدت تقريرا مفصلا بعنوان عرض للادارة المدنية في العراق فلقي هذا التقرير اهتماما زائدا، واحدث ضجة كبيرة، وقدم الي كلا مجلسي العموم واللوردات، ونشر ككتاب ابيض رسمي، وقابلته الصحافة البريطانية بثناء واستحسان، وعلقت عليه احدي الجرائد بقولها: واخيرا اصبح بوسع امرأة ان تدبج كتابا ابيض كهذا.. .

واشارت غيرترود الي هذا التعليق في احدي رسائلها الي أبيها قائلة: تسلمت الان رسالة الوالدة التي تقول فيها ان هناك ضجة كبري حول تقريري، ويبدو ان الخط العام الذي اتخذته الصحافة هو انه لامر جدير بالاهتمام والتقدير ان يستطيع كلب الوقوف علي ساقيه الخلفيتين . اي ان تستطيع امرأة تحرير (كتاب أبيض). ليتهم ادركوا مصدر الاستغراب هذا، واهتموا بالتقرير نفسه اذا كان فيه ما يساعدهم علي فهم العراق .

وفي ١١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٠ عاد السير بيرسي كوكس الي بغداد بعد ان فشلت سياسة ويلسن فشلا ذريعا، وقررت الحكومة البريطانية تغيير سياستها في العراق وتأسيس حكومة ذات واجهة عربية، واصبح الحاكم المدني العام السابق يسمي المندوب السامي ، وبذلك كان اول ممثل سياسي بريطاني في العراق. واستقبل السير بيرسي كوكس استقبالا حافلا واشترك في الاحتفال بقدومه الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي وألقي في الترحيب بها كلمة استهلها بهذين البيتين:

عد للعراق واصلح منه ما فسدا وابثث به العدل وامنح اهله الرغدا

الشعب فيه عليك اليوم معتمد فيما يكون، كما قد كان معتمدا ثم حمل الزهاوي علي الثورة العراقية وعلي القائمين بها حملة شعواء ونهمها ذما شديدا. وعلق المرحوم عبد الرزاق الحسني علي ذلك مستشهدا بالآية الكريمة: والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر انهم في كل واد يهيمون، وانهم يقولون ما لا يفعلون .

واستبشرت مس بيل بعودة السير بيرسي كوكس بطبيعة الحال، واصبحت يده اليمني في كل اعماله، واسهمت مساهمة فعالة في تأسيس الحكومة المؤقتة واقناع السيد عبد الرحمن النقيب بقبول رئاستها، وفي اختيار وزرائها، بهمة لا تعرف الكلل، وحيوية نادرة.

تشرشل في وزارة المستعمرات

وفي شباط (فبراير) ١٩٢١ نقل المستر وينستون تشرشل من وزارة الحرب وأصبح وزيرا للمستعمرات، فقرر عقد مؤتمر في القاهرة دعا اليه الممثلين العسكريين والسياسيين البريطانيين في الشرق الادني لاعادة النظر في سياسة بريطانية في المنطقة ودراسة امكانات خفض النفقات البريطانية فيها، وتقرير علاقات الدولة الجديدة المقبلة في العراق ببريطانيا العظمي من حيث النفقات، وشكل الدولة المقبلة، وشخص رئيسها، ونوعية قوات الدفاع فيها، وغير ذلك. فلما ذهب السير بيرسي كوكس لحضور هذا المؤتمر كان من جملة من اصطحبهم معه سكرتيرته الشرقية غيرترود بيل التي كانت المرأة الوحيدة في المؤتمر. ومن المعروف ان فكرة ترشيح فيصل الاول لعرش العراق كانت قد تقررت بصورة نهائية هناك.

ومنذ نصب فيصل الاول علي عرش العراق، وهو قرار كان للمس بيل دور كبير في تبنيه، لم يتمتع احد بثقته مثل تلك المرأة الانكليزية التي كان يدعوها: (أختي). وفي كثير من ساعات الازمات كانت هي الوسيطة المقبولة في تسهيل الاتصالات السرية بين دائرة المندوب السامي والبلاط الملكي. اما في الاوقات الاعتيادية فكان عملها بصورة رئيسية متصلا بشؤون العشائر. علي انه لم تكن هنالك اية قضية ادارية لم يستعن فيها فيصل الاول ورجاله، والمندوب السامي واعوانه، بمعونتها، وكانت معرفتها بالبلد وسكانه تفوق معرفتهم دائما.

وقد اظهرت الايام كم كان الجنرال مود مخطئا في اعتراضه علي تعيين امرأة في هيئة موظفي المفوض المدني، لأن كون مس بيل امرأة كان علي العكس مما توقعه، من اهم اسباب نجاحها في عملها سواء أكان ذلك في تأثيرها علي فيصل الاول ورجاله، ام في اتصالاتها بالأسر العراقية، وتعرفها علي زوجات الساسة والزعماء، ودخولها بيوتهم، مما لم يكن في امكان أي رجل القيام به.

وكان من جملة واجبات مس بيل، بوصفها الكسرتيرة الشرقية لدار الاعتماد، اعداد تقرير استخبارات نصف شهري تضمنه كل احداث البلد السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وما يدور علي ألسنة الناس من اشاعات، وما يتحدث به الناس في المقاهي والاسواق، او ترددة النسوة في مجالسهن، وتحاول اعطاء صورة واضحة لاتجاهات الرأي العام العراقي وانطباعاته خلال اسبوعين. وهذه التقارير محفوظة جميعا في مركز الوثائق العامة بلندن وفي مكتبة المتحف البريطاني، وبامكان الباحثين والمؤرخين الاطلاع عليها بسهولة.

حوارات مع الخادم

وكانت مس بيل تضمّن رسائلها الي والديها كثيرا من المعلومات التي تذكرها في تقاريرها الرسمية وما لا تذكره فيها احيانا، وخاصة ما هو طريف او غريب منها، او ما له صفة

امام خيمتها في شمال العراق

شخصية. وكان يتساوي لديها. في رسائلها. اهتمامها بحديث لها مع الملك، او حدوث ازمة وزارية خطيرة، او حديث مع طباخها صباحا قبل ذهابها الي عملها.
وانقل. علي سبيل المثال. فقرة من رسالة لها الي أبيها مؤرخة في ٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٩:

.. وكذلك طباخي الجديد. آه يا أبتي كم ستعجبك رؤيته وهو يتجول مزهوا بعباءته. وهو علي الرغم من اجادته الطبخ الي حد بعيد، وصنعه كيكات ممتازة، فانه لا يستطيع ان يقرأ او يكتب، وذاكرته معطوبة. ان حسابات الصباح مثال علي ذلك، فهي تجري كالاتي:
غيرترود: يلله مهدي، الحساب، لازم اروح للدائرة.
مهدي: خادمج، خاتون، اشتريت.. شسمه
غيرترود: زين، شسمه؟
مهدي: ثّمن، قرانين
غيرترود: ثمان آنات. وبعد؟
مهدي: بعد اشتريت شسمه
غيرترود: شنو؟ يلله
مهدي: خبز، ست آنات
غيرترود: زين، داوم
مهدي: بعدين اشتريت شسمه
غيرترود: يا فاطر السماوات. شنو؟
مهدي: شكر.. روبيتين
غيرترود: روبيتين؟ زين
مهدي: بعدين خاتون، نسيت البيض مال البارحة
غيرترود: زين، بعد؟
مهدي: بعدين اشتريت لحم. روبية
غيرترود: وبعد؟
مهدي: واللة اشتريت. خاتون احضّر لجنابج لحم للعشاء؟
غيرترود: كيفك.. خلّص الحساب
مهدي: علي راسي، وبعد اشتريت شسمه

وهكذا دواليك حتي اصل الي حالة بين الهستيريا والضحك..
وبعد ان تطلب الي أبيها ارسال بعض الحاجيات تقول:
هل تعلم يا أبي ماذا يسمونني هنا؟ أم المؤمنين. وآخر من كان يلقب بهذا اللقب عائشة زوجة الرسول. وهكذا تري لماذا لا استطيع ان اترك هذا البلد..

المتحف العراقي

هنالك ناحية مهمة اخري في حياة غيرترود بيل في العراق تستحق اشارة خاصة، وهي اهتمامها بالآثار القديمة وتأسيسها المتحف العراقي.
كانت غيرترود بيل بحكم خبرتها الطويلة السابقة في شؤون الاثار، وولعها بالتنقيبات الأركيلوجية، كبير الاهتمام بآثار العراق القديمة، ولكن انشغالها الكثيرة خلال السنوات الاولي من قيام الادارة الجديدة في العراق لم تسمح لها باعارة هذه الناحية ما تستحقه من وقتها وعنايتها. فلما انتهت المفاوضات الطويلة والصعبة لعقد المعاهدة العراقية. البريطانية في سنة ١٩٢٥، تمكنت مس بيل، علي الرغم من بقائها في منصبها سكرتيرة شرقية لدار الاعتماد، ان تخصص مزيدا من الوقت لشؤون الآثار، فعملت علي تأسيس ادارة للآثار القديمة وعُيّنت مديرة فخرية لها وبقيت تشغل هذه المديرية حتي وفاتها.
وقد مشت مس بيل في تشجيع البعثات الأثرية علي القدوم الي العراق واجراء الحفريات والتنقيبات في مواقعه الأثرية الغنية بالاثار، وخاصة في (اور)، وعملت علي تحقيق مشروع انشاء متحف وطني، واتخذت له مكانا دائما في بغداد، في البناية التي شغلها المتحف العراقي حوالي أربعين عاما، في شارع الامين ببغداد.

الرحلة الأخيرة

قضت غيرترود بيل في العراق عشر سنوات كاملات لم تقطعها سوي ثلاث اجازات قصيرة في اوروبا وانكلترا، وبلغت الثامنة والخمسين من عمرها وهي في عمل دائب، وحركة لا تنقطع، مما استنفد رصيدها من القوة الجسمية، وكان الأطباء قد نصحوها بعدم قضاء صيف آخر في بغداد، ولكنها رفضت مغادرة العراق حتي تنتهي من تأسيس المتحف.
وفي مساء الاحد، ١١ تموز (يوليو) اوت الي فراشها وطلبت الي خادمتها (ماري) ان توقظها في السادسة صباحا. وكانت (ماري)، كسائر المحيطين بغيرترود، قلقة علي صحتها، فتسللت الي غرفتها ليلا لتطمئن عليها فوجدتها علي ما يرام. ولكنها حين دخلت لايقاظها في السادسة صباحا كانت غيرترود في رقدة ابدية. وعلم فيما بعد انها تناولت جرعة كبيرة من حبوب منومة تدعي Dial حسبما كتب الدكتور دنلوب مدير المستشفي الملكي في بغداد، في تقريره عن وفاتها. وكانت وفاتها قبل يومين من عيد ميلادها الثامن والخمسين.
وهكذا انتهت حياة حافلة بالمغامرات والمنجزات وانطوت صفحة ملونة طريفة من تاريخ العراق الحديث، كما فقد الاستعمار البريطاني ركنا مهما من اركانه.
جري للمس بي في اليوم التالي تشييع رسمي حضره الملك علي مندوبا عن اخيه الملك فيصل الاول، والمعتمد السامي البريطاني، ورئيس الوزراء عبد المحسن السعدون، والوزراء، ورئيس المجلس النيابي، وعدد كبير من الاعيان والنواب والوجهاء والمستشارين البريطانيين، ودفنت في مقبرة المسيحيين في الباب الشرقي (قرب ساحة الطيران).
يصف الذين كانوا علي معرفة بالمس بيل شكلها ومظهرها بانها كانت ذات شعر نحاسي اللون، وعينين عسليتين تميلان الي الخضرة. وبشرة براقة، وانف مدبب وطويل بشكل غريب. ويقال ان الرجال الاوروبيين. ومنهم لورانس. كانوا يجدونها جذابة. وعلي الرغم من انها كانت متوسطة الطول، منتصبة القامة، وتتمتع بكثير من الانوثة في مظهرها وملبسها، فان النسوة المحافظات. فيما يقال. كن، لأمر ما، لا يرتحن اليها. وكانت كبيرة الاهتمام بملابسها، تخترق ازقة بغداد الضيقة، وغير المبلطة، وهي مرتدية اخر الازياء الباريسية. وفي رسائلها الي والديها نقرأ طلبات مستمرة لمختلف الملابس والقمصان وغيرها من مخازن لندن وباريس المشهورة.
وكانت غيرترود بيل يوم وصولها الي العراق في الثانية والخمسين من عمرها، وكانت امرأة نحيفة جدا، ولم تكن من النوع الذي يميل اليه الرجال العراقيون، وخاصة في ذلك العهد، لنحافتها المفرطة، ولكن اثرها فيهم كان مع ذلك كبيرا بسبب شخصيتها القوية ولباقتها وحركتها الدائبة، وكانوا يخاطبونها قائلين: خاتون، حتي اصبح ذلك لقبا لها تعرف به، فاذا تحدثوا عنها قالوا: الخاتون، وكانت ألف لام التعريف تغني عن ذكر اسمها.
وكان بيتها موئل كثير من الرؤساء والاعيان، كما زارها وتناول العشاء معها الملك فيصل الاول غير مرة. وكان من اكثر رؤساء العشائر ترددا عليها: فهد الهذال، شيخ مشايخ عنزة، وعلي السليمان، شيخ الدليم، وحسن السهيل، شيخ بني تميم.

في آثار (سوسة) في ايران

وكان لها اصدقاء من الوجهاء المحليين، اقربهم الي قلبها الحاج ناجي في الجادرية، وجعفر عطيفة في الكاظمية، وفائق بك (والد المرحومين ماهر فائق وباهر فائق) في الفحامة. وكانت كلما ضاق صدرها، او رغبت في القيام بنزهة، قصدت احدهم في بستانه بسيارة او زورق بخاري او علي صهوة جوادها الذي كانت تحتفظ به في اسطبل صغير في حديقة دارها.
وكانت غيرترود تأنس اليهم بعيدا عن جو عملها اليومي والموضوعات التي تشغلها، وقد تردد ذكرهم كثيرا في رسائلها.
ولم يكن مجتمع بغداد في ذلك الوقت قد تعود اختلاط الجنسين، ولم يكن من المألوف لدي الناس ان تسلك امرأة مثل سلوكها، او تمارس مثل نفوذها، او تشغل مثل منصبها. ولذلك اصبحت (الخاتون) موضوع احاديث الناس في المقاهي والدواوين والبيوت. فهي تسير سافرة في الشوارع، وتحيي الرجال، وتزورهم في بيوتهم ومكاتبهم الرسمية، وتستقبلهم في بيتها. وعلي الرغم من كونها في العقد السادس من عمرها لم تنج من بعض اقاويل السوء التي نشرت عنها. وصار الناس يتحدثون عن علاقات لها مع هذا الرجل او ذاك من الشخصيات العراقية او البريطانية.

الزهاوي وذات العيون الزرق

وكان الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي في ايام الاحتلال البريطاني ينشر من حين لآخر، في احدي الصحف المحلية، رباعيات شعرية تضمنت غزلا في عيون زرقاء، فاستغل خصومه. وهم يعرفون تردده وقلقه. هذه المناسبة لاحراجه فاطلقوا في الاندية والمجالس اشاعة فحواها ان هذه الرباعيات تضمنت غزلا بعيون مس بيل، وما كادت هذه الشائعة تبلغ سمع الزهاوي حتي طار هلعا وامتلأ رعبا، واسرع يبعث الرسل اليها ويقسم اغلظ الايمان بين يديها ان ليس لتلك الرباعية اي صلة بعينيها.
ولكن الشيخ تقي الخاصي كان اشجع من الزهاوي حين نظم في مس بيل قصيدة تهكمية اشتهرت في حينها، وتناقلها الناس لطرافتها، ومن ابياتها:

وافت الينا مس بيل
راكبة طرمبيل
تحكي البدور وجها
وشعرها يحكي الليل
ترنو غزال نجد
وتشرئب كالخيل
فما رأتها عين
الا وقالت: كيل كيل
عرج علينا نقضي
عشية في الاوتيل

وكان اول من فطن الي اهمية رسائل مس بيل في العراق هو الصحافي القدير رفائيل بطي بما أوتي من حس صحافي مرهف وثقافة عصرية ومتابعة لما ينشر في الغرب بصورة لم تتح لغيره من الصحافيين في عهده. فعني بنشر ترجمة لرسائل مس بيل في جريدته (البلاد) يوميا بصورة متسلسلة ابتداء من عددها الاول. وعلي الرغم من ان الجريدة لم تذكر اسم المترجم إلا أن رفائيل بطي أخبرني انه كان يونس السبعاوي.
علي ان بعض ما جاء في تلك الرسائل من صراحة غير مألوفة في العراق في ذلك الوقت، وما احتواه بعضها من مساس برجال الدين، وخاصة من الشيعة، اثار استياء بعض القراء. وبادر الشيخ باقر الشبيبي الي كتابة مقالة في جريدة (البلاد) نفسها (في عددها الصادر في ٢٠ كانون الثاني. يناير ١٩٣٠) حمل فيها علي مس بيل ورسائلها بشدة.
وكذلك انبري شاعر شاب، كان سيقدر له ان يكون من اكبر شعراء العراق فيما بعد، وهو محمد مهدي الجواهري، الي نظم قصيدة موجهة الي مس بيل، او الي روحها، قال فيها انها كانت ترمي الي التفرقة بين اهل العراق، جاء فيها:

قل للمس الموفورة العرض التي
لبست لحكم الناس خير لباس
لي قيلة تلقي عليك بمسمع
وبمحضر من زمرة السواس
ان كل سرك في العراق بان تري
ناسا له مضروبة باناس
فلك التعزي في سياستك التي
عادت عليك بصفقة الافلاس
خطط وقفت لها حياتك اصبحت
شؤما عليك وانت في الارماس
???

وقد فات منتقدي مس بيل علي ما جاء في تلك الرسائل والذين اتهموها بمحاولة زرع الفرقة في صفوف العراقيين. كما ورد في المثالين السابقين. ان مس بيل لم تكتب رسائلها للنشر، لكي يقال انها كانت تحاول ذلك، بل انها كانت رسائل شخصية لم تتوقع نشرها، ولم تفكر فيه.
واخيرا لا بد لنا ان نتساءل، كما يتساءل الكثيرون، هل كانت مس بيل صديقة للعراق حقا، كما اشتهرت، تعد العراق وطنها الثاني وتسعي لاجل خيره وتقدمه؟ ام كانت مجرد اداة من ادوات الاستعمار لا تهمها غير مصالح بريطانية؟ ام كانت. كما وصفها البعض. جاسوسة تتظاهر بمحبة البلد الذي تعمل فيه ولا تهمها مصلحته، ولا تهدف الا الي خدمة بلادها؟
كانت مس بيل في البداية ضابطة استخبارات مع جيش الاحتلال، ثم اصبحت سكرتيرة شرقية للمعتمد البريطاني في عهد الانتداب. وهي لم تتظاهر بأية صفة اخري، ولم تخف طبيعة عملها موظفة في حكومة بلادها بصورة رسمية لا يشوبها الكتمان تخدم بلدها بكل نشاط.
وليس هنالك شك في ان مس بيل كانت مخلصة لوطنها كل الاخلاص، ولو لم تكن كذلك لما استحقت الاحترام، ومن لا يكون مخلصا لوطنه لا يمكن ان يكون مخلصا لوطن آخر مهما تظاهر بمحبته وصداقته.
ولكنها الي جانب ذلك كانت امرأة عاطفية، عاشت في العراق سنوات طويلة، وكونت لنفسها فيه اصدقاء ومحبين، وكانت اذا وجدت الفرصة للقيام بخدمة للعراق واهله، بما لا يتعارض مع مصالح بلادها، وان تنجز بعض الاعمال الطيبة فيه، فلا شك انها كانت تبادر الي القيام بذلك.
والواقع ان الذين كانوا يتصلون بها من ابناء البلد، ويزودونها بالاخبار والمعلومات. مأجورين او متبرعين. وينفذون ما يكون مخالفا لمصلحة بلادهم من طلباتها، هم اقرب الي صفة الجاسوسية منها.
كتب المرحوم يوسف غنيمة، وزير المالية العراقي السابق، والبحاثة المعروف، مقالة عن مس بيل في مجلة (لغة العرب) الصادرة في ايلول (سبتمبر) ١٩٢٦ (اي بعد وفاتها بشهرين) عبر فيها عن هذا المعني بقدر ما تسمح به الظروف في تلك الفترة من الهيمنة البريطانية، قال فيها: اما الخطة التي انتهجتها في سياستها في العراق فهي انها تسعي السعي المتواصل للتوفيق بين السيادة القومية العراقية واستقلال البلاد، وبين مصالح بريطانيا العظمي في هذا القطر. فهي بريطانيا مخلصة لبلادها، وصديق حميم للعرب والعراقيين.
وكان امين الريحاني، اديب المهجر الكبير، قد زار العراق حينما كانت مس بيل علي قيد الحياة وفي اوج نشاطها السياسي، وتحدث عنها بأسلوبه المعروف في فصل طريف من كتابه ملوك العرب ختمه بقوله: حدثني احد المستشارين قال: طريقة المس بيل السياسية قديمة، وهي مع ذلك لا تركن في الامور لا لعقلها دائما ولا لقلبها. وقال اخر: الناس يأبون التأديب سواء اكانوا عراقيين ام انكليزا.
ولكن المس بيل لا تجابه العراقيين دائما بالقاعدة والعصا كالمعلمة المرشدة، بل تجيئهم مرارا وهي تحمل هدية بدل العصا. هو ذا قلبها عربون اخلاصها ايها الزعيم الوطني، هي ام المؤمنين يقينا. واذا رفضت الهدية والمشورة، اذا ابيت النصح والامتثال، فهوذا السجل، وفيه سيرة حياتك منذ دببت ودرجت، الي يوم وقفت مستعطفا او محتجا في دار الانتداب.
لذلك لا يبادلها العراقيون الحب والوداد، ولكنهم يحترمونها ويعجبون بها، ويودون لها ما يوده المرء لعمته، او الفتاة لخالتها. لا تحبينا كثيرا، عافاك الله، ولا تتدخلي كثيرا في امورنا.
وبعد، فان مس بيل تمثل في تاريخ العراق عهدا مضي وانقضي، وسيرتها مرتبطة ارتباطا وثيقا بمرحلة من مراحل تاريخنا القريب. وان اهتمامنا بها، ودراستنا لسيرتها ورسائلها ينبعان بطبيعة الحال من اهتمامنا بدراسة تاريخنا بكل صفحاته المشرقة والمظلمة، والافادة من دراسة الماضي وتجاربه الحلوة والمرة، لبناء مستقبل افضل. فالتاريخ قبس من الماضي ينير الطريق الي المستقبل.

في بغداد عام١٩٢٣

نشر المقال في صحيفة الشرق الاوسط 2001 وهو تعقيب على كتاب بغداد العشرينات

الشبانة

د. عمار يوسف العكيدي

كيف تاسست.. وتطورت الى جهاز الشرطة في العراق

الشبانة Shabanah كلمة تطلق على قوات الشرطة غير النظامية التي أنشئتها القوات البريطانية المحتلة في العراق وكان بعضها من أفراد العشائر. وقد اورد بعض الكتاب والباحثين ايضا تعريفات أخرى لكلمة الشبانة ، فأشارت المس بيل بان الشبانة كلمة كانت تطلق على الجنود المرتزقة الذين يستخدمون بأجور لاغراض شبة عسكرية وعسكريا احيانا. أما الباحث فوستر فيذكر أن الشبانة هي لفظة اطلقت على طائفة من الحرس الخاص الذين كان شيوخ العشائر يستخدمونهم لديهم في اعمال الحراسة والحماية . في حين يشير نديم إلى أن الشبانة هي كلمة فارسية تعني حراس الليل وهذا الصنف معروف في العهد العثماني . وهو ما اكد توماس بقوله : "أن هذه التسمية كانت تطلق على مثل هذه القوات في زمن العثمانيين وهم من المجندين المرتزقة من العرب والاتراك الذين تطوعوا للخدمة في دوائر الحكام للقيام باعمال الحراسة والتجسس والاشراف على السجون .

ومع دخول القوات البريطانية المحتلة إلى العراق وخلال الحرب العالمية الأولى فقد استخدم البريطانيون أفراد العشائر في قوات الشبانة المحلية التي انشأوها بوساطة شيوخهم وكبديل عن قوات الجندرمة العثمانية .

ومن الملاحظ هنا أن قوة الشبانة قد بدأ تشكيلها كقوة بسيطة تتألف من حوالي ٤٠ خيالا من أفراد العشائر الذين جندهم سنة ١٩١٥ المقدم ايدي من أفراد العشائر في الناصرية .

وقد حاولت الإدارة البريطانية منذ أوائل عام ١٩١٦ استغلال علاقتها مع بعض الشيوخ ، لا سيما اسرة السعدون ، الذين قدموا ٣٣٠ مجندا من أبناء قبائلهم في قوة خيالة المنتفك جعلت بامرة احد الشيوخ آل السعدون وتحت أشراف قسم الاستخبارات البريطانية ، وقد أوكل إلى هولاء المجندين مهمة جمع المعلومات العسكرية والعشائرية والقيام بعمليات استكشاف أمام الدوريات العسكرية والعمل كإدلاء ، فشكلوا بذلك النواة الأولى لقوة الشبانة في منطقة الناصرية .

وفي القرنة قررت السلطات البريطانية تكوين شبانة محلية لحماية طريق سكة الحديد وكان عددهم مائة وأربعة وسبعين نصفهم من الزبير والنصف الأخر من قبيلة ظافر تم تجهيزهم وتسليحهم. كما اعتمدت الإدارة البريطانية في القرنة والنواحي التابعة لها ايضا على قوة الشبانة وكانت بقيادة احد الضباط البريطانيون، يساعده اثنان من ابناء الشيخ اكباشي السعد، وهما مروان وهاشم، وقد منح الأول رتبة ملازم والثاني رتبة نقيب. ومع ذلك فقد جاء في تقرير حاكم القرنة السياسي ماكي J. Mackie لعام ١٩١٨ : "ان هاشم غير متعلم، وانصح بعدم ترقيته في المستقبل" لكنه اشار إلى الاعتبارات التي اجبرت الإدارة البريطانية على تعينه ومنحه رتبة نقيب، الا وهي نفوذه القبلي، وقدرته على التأثير في القبائل والمجندين من ابنائها".

ونتيجة للعلاقات الوثيقة والودية بين الحكام السياسيين وعدد من الشيوخ الذين كانت" استجابتهم رائعة" – على حد تعبير احد تقارير الإدارة البريطانية – لطلبات هذه الإدارة ازداد عدد افراد قوة الشبانة وكانت تتألف من ابناء شيوخ القبائل البارزين وتعمل بامرة الحكام السياسيين في تنفيذ مهمات ادارية بحتة. فقد بلغ العدد الكلي للمجندين من الشبانة في منطقة العمارة عام ١٩١٨ اربعمائة واربعة وعشرين مجنداً. وفي كانون الأول ١٩١٨ قررت الإدارة البريطانية الاعتماد كليا على قوة الشبانة في حراسة الدوائر العسكرية والإدارية المركزية في العمارة وعلي الغربي، واتخذ مثل هذا الاجراء في قلعة صالح ايضا.

ويبدو ان الإدارة البريطانية كلنت مطمئنة لولاء العديد من شيوخ العمارة ومن ثم هي مطمئنة أيضاً للمجندين من ابناء هولاء الشيوخ لذا أنيطت بهم مهام واسعة في حين قلصت من نفوذ الشرطة .

كما كان الغرض من تجنيد الشبانة حراسة خطوط مواصلات الجيش . ففي حزيران ١٩١٥ وبعد احتلال القوات البريطانية للكوت جندت فصيلاً من الحرس للمحافظة على طريق النهر والتلغراف ما بين القرنة والعمارة والبصرة ، وقسمت هذه القوة إلى قسمين في حزيران ١٩١٦ لتوزع على هاتين المنطقتين ، ووضعت بأمرة معاوني الحكام السياسيين وقد بلغت قوتها ١٠٩ مجند في نيسان ١٩١٧ ، ثم تكونت منها شبانة دجلة الثالثة الموجودة في منطقتي قلعة صالح والقرنة .

أما في الشطرة فقد عينت الإدارة البريطانية الشيخ صكبان العلي من شيوخ خفاجة قائدا لقوة الشبانة ، وعينت الشيخ ثامر السعدون قائداً لقوة الشرطة الخيالة في سوق الشيوخ .

ونتيجة الانتصارات التي حققتها القوات البريطانية بين عامي ١٩١٧–١٩١٨ وسيطرتها على منطقة الفرات والشطرة ، تقرر زيادة الشبانة في منطقة الناصرية في عام ١٩١٨ إلى ٤٠٠ مجند ، وضعت بامرة الضابط البريطاني الملازم هيل Hall .

وكانت المهمات الاساسية لهولاء المجندين في منطقة الناصرية هي حماية طرق المواصلات النهرية والبرية بين الناصرية والشطرة وقلعة سكر والكرادي وحماية خطوط التلغراف والسكك الحديد وحفظ الأمن ، ولتطبيق القوانين والاوامر الإدارية والمساهمة في جمع الواردات ، وتدمير قلاع بعض الشيوخ حينما تجد الإدارة البريطانية ان وجودها يتعارض مع مصلحتها ، ومرافقة السجناء عند محاكمتهم .

لقد وزعت الشبانة في مناطق متعددة ففي سوق الشيوخ مثلا وزع أفراد الشبانة البالغ عددهم ٢٠٠ على طول الطريق بين سوق الشيوخ وهور الحمار وبين سوق الشيوخ ومنتصف طريق الناصرية وعلى جانبي نهر الفرات وفي الصحراء المتاخمة للخمسية حيث توجد سكة حديد البصرة – الناصرية ، كذلك في مدينة سوق الشيوخ نفسها .

وفي الكوت أخذت الإدارة البريطانية منذ أوائل ١٩١٨ بتقليص قوة الشرطة ثم قررت إلغاءها نهائيا لوجود قوة كافية من المجندين الشبانة من أبناء شيوخ قبائل المنطقة ، وقد انيط بهم حراسة طرق المواصلات النهرية وخطوط سكك الحديد بين الكوت وبغداد وديالى ، فضلا عن الواجبات الإدارية الأخرى . وفي عام ١٩١٨ بلغ عددهم في الكوت ٣٩٥ مجنداً.

وكانت قوة الشبانة في الحلة تقوم بواجبات ادارية متعددة وكانت تتكون من صنفين وهما ، المجندين المشاة ويبلغ عددهم ٢٨٠ مجندا يقودهم خمسة من الضباط البريطانيين . أما الصنف الثاني فهم المجندون الخيالة وعددهم ٤٧٧ مجندا تحت امرة خمسة من الضباط البريطانيين أيضاً.

كما طلبت الحكومة البريطانية في عام ١٩١٨ من اقرباء وابناء اسر شيوخ العشائر الانخراط في هذه القوة لدعمها ، وفعلا انخرط بعض من أبناء واقرباء الشيوخ كعبد المحسن (من أقرباء الشيخ عمران الحاج سعدون شيخ بني حسن في منطقة طويريج) فقد تولى عبد المحسن السعدون قيادة الشبانة في المنطقة .

وكان الشيخ عمران الحاج سعدون قد زود الإدارة البريطانية بخمسين رجلا من عشيرته وتوزعوا على قوة المشاة والخيالة . ومن جهتها كافأت الحكومة البريطانية كل الشيوخ المتعاونين في هذا المجال والراغبين في تعين أبنائهم كضباط لقيادة هولاء المجندين. وقد وصل العدد الكلي لقوة الشبانة في الحلة والتي تمت الموافقة عليها ٤٩٠ من المشاة و ٣٤٠ من الفرسان . وكانت قوة الشبانة في الحلة مكلفة بواجبات الحراسة في الحلة والمسيب وطريق مسيب كربلاء وطريق كربلاء النجف ، فضلا عن هذه الطرائق المذكورة في أعلاه ، فقد كانت مكلفة أيضاً بحراسة طرق الحلة – بغداد حتى المحمودية والحلة الديوانية وخط الحلة كفل وطريق الحلة – سدة الهندية وفي المسيب إلى المحمودية . وفضلاً عن ذلك فقد كانت قوات الشبانة تساهم في تحصيل الضرائب من العشائر المتمردة .

وفي منطقة الشامية ، كان رجال القبائل يقدمون أسلحتهم الخاصة والملابس بسبب الشيوخ الذين كانوا أصدقاء الحكومة وكانوا متميزين بارتداء باجات خاصة .

وفي السماوة كان من الضروري للإدارة البريطانية الضغط على القبائل فالمنطقة قطعت تجهيز الرجال لخدمة سلطات الاحتلال ، وكانت مثل هذه الخدمة بدون شعبية فخشى المجندون من استخدامهم كجنود من قبل الإدارة البريطانية.

وفي بعقوبة تم تعيين الكابتن بيدر Pedder مساعد الحاكم السياسي لتولي قيادة الشبانة في أيار ١٩١٨ نواتها ١٤٠ من المشاة و ١١٠ من الفرسان وكانت واجباتهم حفظ الأمن . أما في خانقين فكانت قوة الشبانة تتألف من ٢٠٠ مجند وكانت بأمرت اربعة من رؤسائهم وهم محمود بيك دلو وإبراهيم بيك سراوي وإبراهيم بيك دلو وقادر أغا باجلان . وقد استخدمهم الميجر سون في تعزيز النظام الداخلي ومنع وصول التجهيزات إلى القوات العثمانية .

وعلى اية حال ، كان الهدف الاساسي من تشكيل قوة الشبانة هو تعزيز موقع الإدارة البريطانية اولا ثم معاقبة كل العناصر المناوئة لها ، وضمن هذا المفهوم يقول مساعد الحاكم السياسي في الشطرة في تقريره السنوي لعام ١٩١٨ : " ان مهمة الشبانة في الشطرة هي ارجاع الشيوخ [الاوغاد والأرذال] . واخضاعهم للسيطرة البريطانية.. ".

بقيت قوة الشبانة – التي اصبحت بعد الحرب العالمية الأولى تسمى " الميليشيا " . خاضعة لسيطرة الإدارة المدنية خلال سنوات الحرب العالمية ، وتستخدم عادة في تنفيذ اواجبات الإدارية ، وكان يقودها ضباط بريطانيون يعملون في دوائر الإدارة الندنية إلى جانب عدد من ابناء الشيوخ .

انتلقت قوات الشبانة إلى مرحلتها الثانية بين عامي ١٩١٨–١٩١٩ . فقد ظلت امكانية تدريب الشبانة واستخدامها كقوات ضاربة ، بحيث يمكن ان تصبح نواة للجيش مستقبلا ، فكرة تدعو اليها بعض الاوساط على الدوام حتى اصبح من الواضح ان التوفيق بين واجبات الشبانة العسكرية والشرطة لم تعد شيئا ممكنا وانما يمكن ان يؤدي ذلك إلى التقليل من كفاءتها.

وفي الوقت نفسه ، شهدت سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى تطور مهم في مجال تنظيم واجبات فصائل الميليشيا لتصبح ظهيرا (مدرباً ومسلحاً) للقوات العسكرية البريطانية ، وتساهم في تعزيز قوة الشرطة ، واصبح لها مقر عام في بغداد يتولى شؤون ادارتها وتجهيزها بالمعدات ، ودفع رواتب منتسبيها ويشرف على ذلك الضابط البريطاني بويل Boyle للفترة ١٩١٨–١٩٢٠ بعد ان كانت تدار محليا من الحكام السياسيين).

الكرة العراقية.. ذكريات ومفارقات

سيف الدين الالوسي

دخلت كرة القدم العراق بعد دخول القوات الأنكليزية ، حيث كان يلعبها بعض الضباط والمراتب الانكليز في المعسكرات الواقعة في الالوية العراقية .

انتشرت كرة القدم بين أبناء العاملين والمستخدمين العراقيين في تلك القواعد ، وخصوصا في الحبانية والشعيبة وكركوك . وقد برز عدد كبير من هؤلاء اللاعبين من الجيل الاول ومنهم ناصر جكو،عمو سمسم، ويورا وغيرهم ومن أواخرهم هو المرحوم اللاعب والمدرب الكبير الأسطورة عمو بابا .

بدأت كرة القدم بالأنتشار السريع في مدن العراق عامة ، وفي بغداد والبصرة بصورة خاصة ، وقد مورست على نطاق بطولات التربية للمدارس في الالوية ، والكليات في جامعة بغداد بداية ثم بقية جامعات القطر .

أنشأت في العهد الملكي عدد من ملاعب الأدارات المحلية في مختلف الألوية، وهي ملاعب متوسطة الحجم ،تتراوح الطاقة الأستيعابية لها بين الخمسة والعشرة الاف متفرج ، في تلك الفترة كانت هذه الملاعب تفي بالغرض الذي شيدت من أجله .

تلك مقدمة بسيطة جدا عن تأريخ نشوء كرة القدم في العراق .

نعود الى كرة القدم في بغداد ، فقد أنتشرت بصورة سريعة بين أوساط الشباب والطلاب وخصوصا من فترة الأربعينيات ولحد يومنا هذا . بدأت كرة القدم تنتشر بين الصبية والشباب في مختلف الشوارع الفرعية والأزقة في بغداد ، وخصوصا في العطلة الصيفية وكانت الكرة المطاطية ،(طوبة أم ثلاث دراهم) ، هي سيدة الكرات كافة .

ولتعريف الكرة أم ثلاث دراهم للجيل الجديد ، هي كرة مطاطية صغيرة بحجم كرة اليد المستعملة حاليا ، لونها أصفر خاكي مائل الى البني ، كانت تباع بسعر ثلاثة دراهم في وقتها أي ما يعادل نصف دولار حاليا .

هذه الكرة العجيبة خرجت أجيال عدة من لاعبي كرة القدم العراقيين .

بدأ بتأسيس عدة أندية لفرق كرة القدم في العراق ، وكان من أشهرها فريق القوة الجوية، والحرس الملكي، والفرقة الثالثة، ومصلحة نقل الركاب، والشرطة وغيرها .

أذا ذكرنا كرة القدم العراقية فيجب أن نذكر رائدها ،كلاعب ومدرب ومعلق ، وهو الأستاذ المرحوم أسماعيل محمد ، والأستاذ أسماعيل محمد ولد في الكرخ سنة ١٩٢٢ ، وهو صحفي بارز، ومؤرخ ،ومعلق، وأداري وأكاديمي، ومدرب ولاعب .

كان كابتن فريق المعارف (المنتخب المدرسي العراقي) في دورتي ١٩٥١ و١٩٥٤ في القاهرة وبيروت .ومدرب فريق الحرس الملكي في موسم ١٩٥٤- ١٩٥٥ ، ثم مدرب النادي الاثوري ، ومدرب فريق المصلحة (مصلحة نقل الركاب) سنة ١٩٥٦ . تولى تدريب المنتخب العراقي في دورة بيروت سنة ١٩٥٧ .

حاز رحمه الله على شهادة التحكيم من أنكلترا سنة ١٩٤٨ . علق على أول مباراة بين منتخبي العراق ومصر العسكريين سنة ١٩٥٥ ، وفسح المجال للاستاذ مؤيد البدري للتعليق سنة ١٩٦٣ ولفترة ، وليترك التعليق نهائيا سنة ١٩٦٧، وبعد أن أصبح الأستاذ مؤيد البدري علما ورمزا للتعليق الكروي العراقي ،وعلى مستوى العالم العربي .

وعلى ذكر التعليق ، فقد أنجب العراق عدد من المعلقين بالأضافة الى الأستاذ الكبير مؤيد البدري، ومن أهمهم المرحوم طارق حسن(حرامي بغداد)وكان معروف بشطحاته اللطيفة العفوية البغدادية ، وبصمته الخاصة ، ومن أشهر الشطحات عند تعليقه مرة على ضربات الجزاء(أعتقد مع قطر حسبما أتذكر) ، وعندما أضاع اللاعب ناظم شاكر الضربة قال (هي ، هي ، لا هواية رح نغلب و من ! رح نصعد) ، ثم عاد وفاز المنتخب العراقي في تلك المباراة ..... رحم الله ذلك القلب الأبيض المرحوم طارق حسن.....

وكذلك المرحوم المعلق حسين علي النوح وهو من مدينة الموصل الحدباء، وكان يعلق باللهجة المصلاوية (ضغبا جدا ممتازا) يعني ضربة جدا ممتازة ، رحمه الله تعالى ، فقد كانت له طريقته وأسلوبه المميز المحبب. كذلك من المعلقين السادة حسين حافظ، ومحمود السعدي ،وشدراك يوسف ، ولو أن الأخير كان لاعبا أفضل مما هو معلقا وهذا رأي شخصي .

كانت الطوبة (كريكر) أم المية ، هي كرة الهواة في الملاعب الشعبية مثل الكسرة، والعوينةو والزوية وغيرها ..

كانت هنالك ساحة لكرة القدم في الحارثية، ومقابل قصر الرحاب مباشرة ، لا يفصلها عنه سوى شارع من ممرين، أصبح الان شارع عريض جدا وله جزرة وسطية، هذه الرواية سمعتها من الأخ محي السامرائي ، كانت الحارثية في بداية أنشائها سنة ١٩٥٦ ، حيث تم تشكيل فريقين لكرة القدم من شباب المحلة الجديدة ، وكانوا يلعبون الكرة يوميا في وقت الظهيرة والعصر في تلك الساحة ، ويتعالى الصراخ والسباب وغيرها أثناء اللعب ، والساحة تلك لاتبعد ،عن غرف نوم الملك ، والوصي، والعائلة المالكة رحمهم الله وأدخلهم فسيح جناته جميعا ، غير أمتار معدودة،في أحد الأيام ترجاهم الوصي رحمه الله بعدم الصياح، كون الملك فيصل رحمه الله مريض ويحتاج الى راحة ، التزم الشباب بعدم الصياح والصراخ والسباب ، و بعد أيام خرج المغفور له الملك فيصل الثاني ومعه أطقم من ملابس الرياضة الخاصة بكرة القدم ، وكرة كريكر جديدة ليقدمها هدية للشباب وليشكرهم ، وحتى أنه شاركهم بلعب الكرة .. ومن ثم تم تعديل الارض وتحسينها ، وأخذ مراتب وضباط الحرس الملكي الشباب يشاركون أهل الحارثية في لعب الكرة ، تلك هي واقعة حقيقية من شاهد عيان أطال الله في عمره .

كانت أحذية اللعب (اللابجينات) ، مصنوعة من الجلد مع البسامير الجلدية ، لتساعد على اللعب في الملاعب الترابية الشعبية .

في ١٠ نيسان ١٩٦٦ كان نهائي بطولة كأس العرب بين منتخبي العراق وسوريا وفي ملعب الكشافة،تم تقديم موعد المباراة يوما واحدا لأرتباط رئيس الجمهورية المرحوم عبد السلام عارف بسفرة الى البصرة ، وكانت سفرته تلك هي التي سببت وفاته في حادثة سقوط الطائرة المعروف يوم ١٣ نيسان ١٩٦٦.

أنتهت مباراة النهائي بفوز العراق بهدفين مقابل هذف واحد ، سجلهما اللاعب كوركيس أسماعيل ، أستلم كأس البطولة اللاعب الشهير والضابط الطيار وكابتن منتخب العراق أنذاك هشام عطا عجاج ، وخرج جمهور الكرة فرحا وهو يهزج هذا الكاس يلمع والسلطجي يدمع ..

(السلطجي هو حارس مرمى المنتخب السوري) ، كان رئيس الجمهورية ومسؤولي الدولة ومشرفي الرياضة مسرورين جدا بأنجاز مدرب المنتخب الوطني المرحوم عادل بشير .

من أشهر لاعبوا المنتخب أنذاك وأذا لم تخني الذاكرة ، هم حامد فوزي لحماية الهدف ، واللاعبين نوري ذياب وجبار رشك وصاحب خزعل ومحمود أسد وشدراك يوسف وباسل مهدي وشامل فليح وكوركيس أسماعيل وهشام عطا عجاج وقاسم زوية ، وغيرهم ممن لم تسعفني الذاكرة لكتابة أسماؤهم .

بعد فترة تم أفتتاح ملعب الشعب الدولي والذي تبرعت بأنشائه مؤسسة كولبنكيان ، وفي نفس السنة ، وجرت مباراة الافتتاح بين المنتخب العراقي ونادي بنفيكا البرتغالي الذي كان يلعب فيه المهاجم الشهير أوزيبيو وهو هداف كأس العالم في سنة ١٩٦٦ ،. أنتهت المباراة بفوز بنفيكا بهدفين مقابل هدف واحد.

كانت ملابس حراس المرمى والى منتصف السبعينيات سوداء كاملة ، الى أن تم تغييرها الى الوان مختلفة .

من أشهر حراس المرمى محمد ثامر (القط الطائر) ، ولطيف شندل ،ومن ثم ستار خلف وجلال عبد الرحمن وأحسان بهية وغيرهم.

أستمر تطور الكرة العراقية وأنجبت الكثير من اللاعبين المتميزين والى اليوم ،

مع الأسف لم نرى تشييد أي ملعب جديد في بغداد العاصمة ومنذ أكثر من سبعة وأربعين عاما .

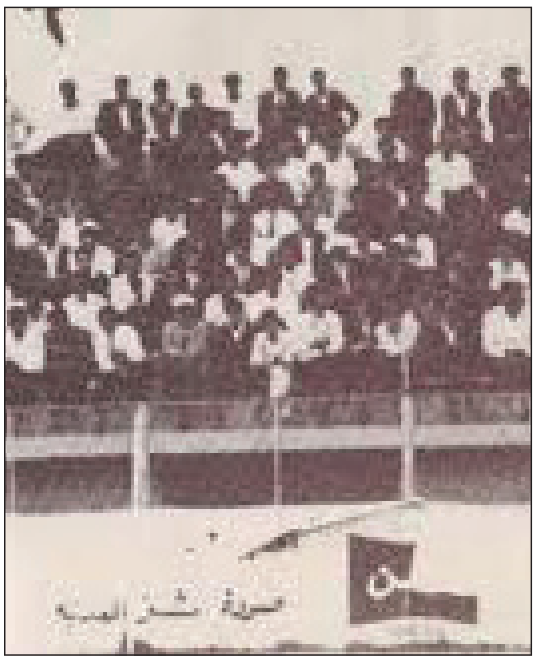

حكاية شقاوات بغداد

باسم عبد الحميد حمودي

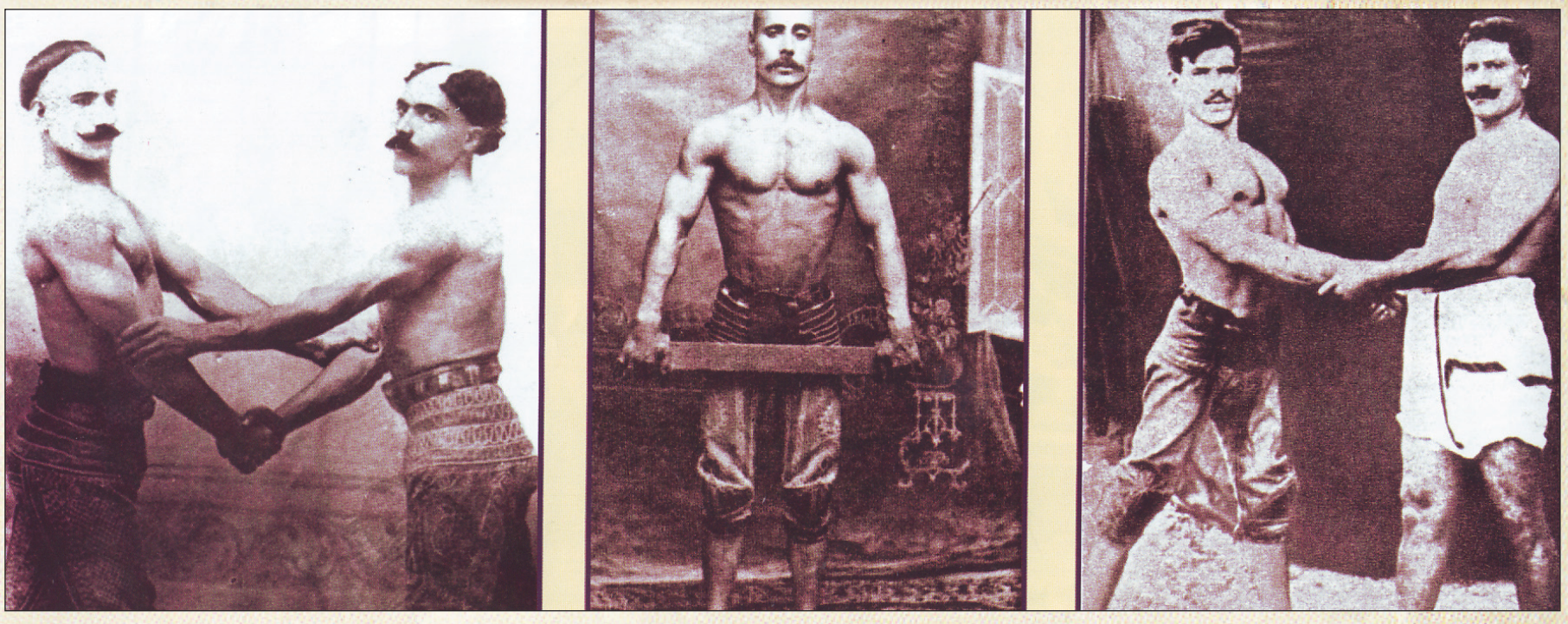

يونس سعيد البغدادي صحفي قديم اشتغل محرراً ومصححاً في الكثير من صحف العهود الماضية ابرزها صحيفة الحرية لقاسم حمودي ومجلة (فرندل) لصادق الازدي وغيرها. وقد بدأ يونس سعيد بنشر بعض المقالات في (فرندل) عام ١٩٥٧ عن سجايا البغداديين وشمائلهم حتى اغلقت المجلة فتولى نشر مقالاته في جريدة (العهد الجديد) واجتمعت لديه بعد هذا مادة كتاب صغير عن (شقاوات بغداد) صدر عن مكتبة النهضة ببغداد عام ١٩٦١ في عيد بغداد الالفي الذي نظم في العام نفسه واشرف عليه ثقافياً الدكتور ناجي الاصيل مدير الآثار العامة انذاك ووزير الخارجية الاسبق وتمت احتفالات العيد الالفي برعاية رئيس الوزراء انذاك اللواء الركن عبد الكريم قاسم وشارك في تلك الاحتفالات عدد كبير من الباحثين العراقيين والعرب والاجانب. وقد نشر يونس سعيد كتيبه هذا على هامش العيد وكان ممن كتبوا ونشروا خارج الاحتفالات الرسمية الاستاذ محمود العبطة المحامي الذي نشر كتابيه (رجل الشارع في بغداد) و(الفولكلور في بغداد) وعُد الكتابان بعد هذا من المراجع المهمة عن الفولكلور البغدادي.

وكان من حظ يونس سعيد ان ينشر دراسته هذه خارج المتن الرسمي لتؤرخ لفترة تاريخية من حياة بغداد الشعبية عن اصول الفتوة تاريخياً وتطبيقاتها في المحلة البغدادية منتصف القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وقد عرض فيه لاصول (تقاليد) الشقاوات وبعض ممارساتهم وابرز الشخصيات منهم مثل ابن عبدكه وابراهيم الحوراني ومودي وخماس بن شاله وغيرهم وبذلك يعد هذا الكتيب وثيقة شعبية تاريخية تصور جزءاً من تقاليد مجموعة من الناس هم الاشقياء او الشقاة في نظر البعض وهم الفرسان الذين يتمتعون باخلاق الفروسية في رأي اخرين. ونختار هنا بعض فصول دراسة المرحوم الاستاذ يونس سعيد البغدادي.

ابو زيد الهلالي والاشقياء

وقد كان لشقاوات بغداد ولع أي ولع بالاصغاء الى ما ينشده (القصه خون) من اخبار تلك المعارك وما يصوره من اشكال تلك البطولات.. ولا غرو في هذا فانهم هم ايضاً من اصحاب المعارك والبطولات، واذا كانت مكارم الاخلاق قد طغت على شخصية أبي زيد او عنترة او غيرهما من ابطال الملاحم، فان الشقاوات انفسهم كانوا لا يجدون مناصاً من التمسك بأهداب الاخلاق وخير مثال نضربه على ذلك ان الشقي (ممودي) اعتزم ذات ليلة الذهاب الى زيارة بعض اصدقائه في محلة باب الشيخ بعد ان اعلن توبته، وعند عودته ووصوله بالقرب من مقابر اليهود داهمه رجلان وقد شهر عليه كل منهما مسدساً ولما ادرك انهما يريدان سلبه خلع عباءته ووضعها على الارض واخذ يخلع ملابسه وهو يقول ضاحكاً: "هذا هو شأن الدنيا يوم الك ويوم عليك، فلما سمعه الرجلان وعرفاه من صوته اخذا يعتذران له ويقبلان يديه، فصفح عنهما بعد ان اخذ عليهما عهداً بان يتركا اعمال السلب وقطع الطرق على السابلة وافهمهما انه عندما كان شقياً فان شقاوته كانت محصورة في مناوأة الحكومة العثمانية وليس في اعمال السلب والنهب، اللهم الا اذا اقتضت الضرورة.. ضرورة الحياة، فانه كان يسطو على دور الموسرين من الاجانب.

وكذلك كان يجد الاشقياء في الاصغاء الى (القصه خون) ما يثير في نفوسهم من غرائز اصيلة في الاحتساب الى المستقبل وهو بيد الله، ولو ان عالماً من علماء النفس قد تطوع وسبر غور أي واحد منهم، لوجد ان جوانحه وهو يصغي الى اشعار (القصه خون) تفيض أبدا وفي كل لمحة من ملامح وجهه التعبيرية بالخير والجمال. ولراعه ان يجد حامل (البشتاوه) هذا او متمنطق (الجلتيانة) ذاك رجلا شهما وحساسا رقيقاً.

و(القصه خون) هو الآخر من بقايا نظام الفتوة، وقد شهدته وانا في الخامسة عشرة من عمري، فرأيته رجلاً قد تخطى العقد الخامس بقليل، وقد عقد على رأسه (جراوية) جعلها في لفتين تشبهاً بـ(الشقاوات) ولكنه كان يمتاز عنهم بالنظارة التي كان يضعها فوق انفه بعد ان يشدها الى اذنيه بخيط رفيع من (السانتيم) فهو بحسابه استاذهم وبحسابهم شاعرهم.. وكان اذا هم بالتلاوة او الانشاد شهر سيفاً خشبياً واخذ بالانشاد على طريقة غنائية خاصة وذات ليلة وقد وصل من القصة الى ان ابا زيد قد قتل في وذلك ليلة ايضاً صادف ان انشد القصه خون شعراً وقع فيه أبو زيد أسيراً بيد أعدائه فدخل السجن، وأنهى الفصل وأرجأ بقية القصة الى اليوم التالي، غير انه عندما وصل الى البيت راعه ان يجد احد (الشقاوات) الشبان ينتظره وفي يمينه خنجر مرهف الحد ويقول له مهدداً:

-ملا.. راح اتطلع ابو زيد من السجن لو لاع!

وعلى ضوء المصباح النفطي الذي كانت تنير

يونس سعيد في مطلع الستينيات

به البلدية شوارع وازقة بغداد فتح القصه خون كتابه ووصل ما انقطع من سياق القصة، واخذ يتلو بصوت خافت كيف ان ابا زيد استطاع ان يثقب سقف (الزنزانة) وكيف حطم باب السجن وفر من سجنه باعجوبة.

وهنا تنفس الشقي الصعداء فقد خرج ابو زيد من السجن وترك الملا الى داره المعتمة في آخر الزقاق وخياله أبداً مع أبي زيد.

"الموال" في حياة الاشقياء

وكما عرف الاشقياء بحياة القوة والبطش واهتبال الفرص المؤاتية في الكفاح من اجل البقاء، فقد عرفوا باصالة تذوقهم للفنون، شأنهم في ذلك شأن البغداديين جميعاً، ولا غرو، فقد كان البغداديون وما فتئوا مضرب المثل في الظرف والميل للطرب والعناية بالنظافة اما ولعهم بالسخاء والاريحية، فذلك امر لا نحتاج الى ما نستدل به عليه. وهذه بلا شك وغيرها من الاوصاف الحسنى تفتح ابواب الازدهار للحياة فيكثر الظرفاء وتكثر بكثرتهم الفنون، وان بلداً يجعل بجماله وحلاله من السقائين في مراتب الاريحية والظرف حري بان يسمو بكبرياء خلوده الى القمم الصاعدة شرفاً ومجداً وقمين بأن يجعل من فتيانه الاشقياء في طليعة الواردين من نمير المكرمات اعذبها واسلسها وابردها على القلب الصادي. وهكذا تولع الاشقياء بالفنون، وأحبوا الموال منها بوجه خاص.

وقد كانت مجالس بغداد في العصر الماضي تعج بطائفة كبيرة من الشعراء والظرفاء الذين تفننوا في نظم الموال غير ان ادبنا الشعبي لم يسجل لاحد انتصاراً في هذا الشأن كمل سجل ذلك للملا جادر الزهيري، فقد كان من فتيان بغداد، وقد تولع بحبها فنظم فيها وفي شمائل اهلها الغر من الموالات التي لا تحصى، غير انها تبعثرت مع الاسف المرير، ولم يسعفني الحظ في الوقوف على شخصية هذا الشاعر الفذة وقد يكون من ابناء محلة المهدية في الفضل حيث يسكنها فخذ من عشيرة الزهيرات المعروفة في لواء ديالى، ويا ليت من ينبري من الادباء فيؤرخ لحياة هذا الشاعر الفتى البغدادي الذي جمع خصال الفتوة وآدابها في موال واحد لا يزال يترنم به البغداديون ولا احفظ له شيئاً سواه فهو يقول:

امعادن الود تظهر من معادني

وحكوك الاصحاب او فيها معادیني
والصاحب اللي كرن دينه معادیني
من غيمة الريب جوى لم يزل صاحبي
واللي شرب كاس خمر امودتي صاحبي
اكره صحيب الذي يحجي كفا صاحبي
واللي يعادي صحيبي هو معادیني

فأي موال زهيري جياش بمعاني الاخوة هذا، واية خصال كريمة من خصال الفتوة العربية تكتنز فيه؟..

فلقد جاء في الأثر الشريف: الناس معادن.. وقد فاخر الملا جادر الزهيري البغدادي بان معادن الود تظهر من معادنه فهو الجوهر.. واذا كان ولابد من اظهار ما يتسم به من سمة الايثار فانه يتطوع بملء ارادته واختياره الى الوفاء بديون اصحابه الى جانب وفائه بالديون التي بذمته الى غيره.. وانه ساع الى ان يجعل الجو الذي يكتنفه وصاحبه في حالة صحو من كل غيوم الريب والشكوك، واعتزازاً بحبه لاصحابه فان كل من يشرب من خمر مودته يصحو به، ولا تعتريه السكرة وهذه كناية عن المغالاة في الحب.. وطبيعي ان نفساً كهذه جياشة بحب صديقها تكره مصاحبة الشخص الذي يغتاب ذلك الصديق، وانه في حالة عداء دائما مع الذين يكنون لصاحبه العداء..

ومن الموالات التي سمعتهم يترنمون بها ما قاله الشاعر الشهير عبد الغني جميل البغدادي وهو جد الاسرة الجميلية المعروفة في بغداد واورمتها في محلة قنبر علي:

انبيك يا صاح روحك بالصبر علها
عل الليالي تعود وترتشف علها
ان جان طير السعد رفرف ولى علها
وهناك نبني بيوت للمجد وعراف
ونجيد اهل الردە بمشذبات عراف
يا حسرتي كوطروا عني الولف وعراف
واليوم جم عام روحي ما برت علها

وقول الملا سلمان الشكرجي العبدلي البغدادي:

نار الهجر بالضماير زاد واطيها
واعلى المعالي شمخ بالجور واطيها
دار الجفت خلتي يا رب واطيها
هيهات روحي ترد وتعود لاجنها
ونياب فرك الولف لحشاي لاجنها
لو جان ربعي بهمي تهم لاجنها
ما تحرك النار الا رجل واطيها

وما قاله الشاعر الشهير عبد الغفار الاخرس:

آه على الطيف منك لو يزور بسنه
ويلوح الي من جبينك هل وضحى بسنه
لا تظن غيري مسودن مبتلي بسنه
هايم بذكرك واحسب احساب بعدك وعد
واهل كثر المدامع من صدودك وعد
واعد وماطل ولا توفي بذاك الوعد
أرضى ولو صار وعدك كل يوم بسنه.

ولا نقول جديدا ان الشاعر الشعبي الشهير الحاج زاير الدويج النجفي قد ابدع أيما ابداع باقتفاء أثر عبد الغفار الاخرس في موال سمعت الاستاذ محمد القبانجي يتغنى به على نغم (الابراهيمي) في احدى المناقب النبوية الشريفة، واصبح على لسان جمهرة المغنين الهواة من اهل بغداد:

من يوم فركاك ما لذن جفوني بسنه
ولكثر شوكي تسعر هل دليل بسنه
يا ترف حسنك يفوك اعلى البدور بسنه
من دون كل الخلك سيفه علي شهر
حين رماني ولا سرار المودة شهر
انت عليك السنه تمضي بحسبة شهر
وأنه عليّ الشهر كل يوم منه بسنه"

ولقد يفتنك ان ترى بين الاشقياء ينظمون الموال والعتابة تأسياً وتشكيا من نائبات الدهر، فهذا عمران الشبلاوي القيسي الذي دوخ العثمانيين أمداً طويلاً من الزمن ومن بعدهم البريطانيين حتى وضعت الحكومة المحتلة جائزة قدرها عشرة آلاف ربية لمن يقبض عليه، فاضطر بعد ان تألبت عليه الايام وبلغ من الكبر عتياً ان يلتحق بابناء عمومته بني قيس (الكروية) الضاربين على سفح جبل حمرين حيث قال وهو على فراش الموت:

لمين جفن سواعيد المجد مني
يقنت بامر الجره واكريت بالمن
ناديت يا منزل السلوى مع المن
والدهر ياما جيوشه بالمراتب عجب
حتى عجبهم من اطريج المودە عجب
يا رفكتي لو متت ما هو عليّ عجب
خلي التكادير تاخذ حكها مني

واننا لنجد القوة والابداع والجناس في هذا الموال، وكأننا نقرأ شعراً فصيحاً، وابدع من هذا تخلصه بعد الاستجارة بربه الكريم (يا منزل السلوى من المن) الى اعترافه الواضح الصريح بصلابته في معارك القدر التي تغلب فيها واعطائه الحق للقدر ان يثأر منه وذلك بقوله: (يا رفكتي لو متت ما هو علي عجب.. خلي التكادير تاخذ حكها مني).

وانه على ما نرى ليس بكلام قيل جزافا.. انه الشعور بالقوة الانسانية التي تتلاشى امام الموت وهي في عنفوانها العظيم، وليس ادل على ذلك من انه بارح الدنيا بعد ايام قليلة من ترنمه بهذا الموال الدافق دماً وحياة.

وقد ذكر لي احد المسنين من ابناء محلتنا ونحن نتحدث عن الموال والغناء ان شقياً كان يدعى ابراهيم الحوراني اوقع الانكليز في مأزق حرجة، فلما قبضوا عليه قرروا اعدامه شنقاً في ساحة الميدان امعانا في اذلال البغادة.. وعندما جيء بابراهيم الحوراني انشد يقول:

شقاوتي ضوجت خلكي وعمري طال
من كثر قطع الجماجم والدما هطال
الحبس لي مرتبه والقيد الي خلخال
والجنبه يا علي مرجوحة الابطال

وفي هذه الخلجات الشاعرية الحارة نستطيع ان نتصور مدى تأثر الحوراني بابي زيد الهلالي، عندما كان يصغي الى اساطيره وهو فتى في المقهى، ومن الانصاف ان نذكر له هذا، فقد قطع في نصف موالە هذا بـ(كثر الجماجم والدما هطال) على انه كان اسطوري النزعة في النظم.. ويؤسفني ان محاولاتي في الوقوف على غير ذلك من منظوماته قد باءت بالفشل، فلم يسعفني الحظ على ان اعثر على غير هذه الاشطر من موال لم تسعفه (الجنبه) وهي حبل المشنقة على اتمامه، غير ان استجارته بالامام علي بن ابي طالب عليه السلام دليل على ما كان يعمر فؤاده من فتوة اوقفته فتى في وجه الاستعمار، واعتلى خشبة الموت غير هياب ولا وجل لوثوقه من نفسه انه سيتأرجح في ارجوحة كانت على ما بدا له ارجوحة الابطال!

يا من تصلي عالنبي تربح

واذا كان ختام كل حديث مسكاً، فليكن المسك الذي نضوع به اجواء حديثنا هذا، الكلام عن شقاوات جيلنا، فقد كان ذلك الجيل آخر مظهر من مظاهر الحياة الشعبية الشيقة التي تربط الجيل الحاضر بالجيل الماضي، حيث كان ابناؤه آخر من مارس اعمال الفتوة بادابها ورياضتها، فهم اليوم من شذرات المجتمع البغدادي –مثقفين واميين– الذي تقف امامه (الفتوة العربية) فخورة بما انجبت، حيث لم تكن لهم في صدور شبابهم ما للماضين من مواقف تقتضيها المغامرات، سوى ما كانت تقتضيه اسباب التفاخر والمباهاة. وقد شهدتهم وانا صبي ادرج، يمارسون الفروسية، ويلعبون الساس، وكانت فروسيتهم تتجلى بأبهى مظاهرها في الاعياد حيث ينطلقون زرافات ووحدانا الى حلبة السباق بالقرب من الباب الوسطاني ويسمونها بـ(المنظرة) فيستقبلهم هناك اصحاب الجياد، فيستأجر كل واحد منهم جوادا ويشتركون في سباق ودي لطيف حتى ينتهي بهم (الطراد) الى ساحة قريبة من باب المعظم حيث يجلس الوجوه والشيوخ على أرائك شعبية هي الاخرى، تسمى بـ(التخوت) وينبري اعظم الجالسين مقاما فيمنح الفائز بقصب السبق جائزة نقدية، ولصاحب الجواد جائزة اخرى، وهكذا.. ولما كان الصبيان ممن يتشوقون الى التظاهر بمظاهر الرجال، فقد كانوا يمتطون ظهور الحمير بانواعها والشقي (الوكيح) منهم كان لا يقبل الا الحمار الحساوي المخضب جبينه بالحناء. وقد انقرضت هذه العادة مع الاسف ولم يبق من آثارها شيء اليوم الا في بعض المحلات الشعبية التي لم تزل على سليقتها الاولى في الحياة. ولقد شاهدتهم ايضاً –واقصد بهؤلاء اقراني– يقومون بواجبات الخدمة في المناقب النبوية التي كان يقيمها الموسرون من ابناء المحلات احتفاء بالمولد النبوي الشريف في الثاني عشر من ربيع الاول لكل عام وفي مقدم شهر رمضان المبارك وفي المناسبات السعيدة الاخرى، كذلك لا تخلو مجالس العزاء من وجود هؤلاء الفتيان حيث يضمخون اجواء هذه المجالس بطيب العود والبخور ويتبارون في تقديم واجبات الخدمة للحاضرين من ابناء المحلة وغيرهم من ابناء المحلات الاخرى خصوصاً في المجالس التي تقام احياء لذكرى الحسين عليه السلام.

وكما كان الاقدمون مولعين بالموال وغناء الموال، فكذلك وجدت اقراني مولعين بـ(العتابة) وهو من انواع الشعر الشعبي وبحره من بحور الشعر (الوافر) واشهر الناظمين بها رجلان احدهما يدعى (حمادي الجاسم) من عشيرة الجبور، والثاني: (عبد الله الفاضل) من شيوخ (عنزة) ثم ذاعت وانتشرت في بغداد وفي مدن الشمال والغرب، وقاعدة نظمها على نوعين الاول يتألف من اربعة اشطر ثلاثة منها متحدة القافية. ومجنسة بالجناس التام شأنها في ذلك شأن الموال والشطر الرابع يختم بألف وباء ساكنة وتجيء زائدة على الوزن كقول بعضهم في الرثاء:

تهزهز يالحد وانفض ترابيك
عزيز الروح هل نايم ترابيك
لفانه العيد واعيوني ترابيك
تهنّه يا ترف واحنه بعذاب

اما قاعدة الثاني فهي كقاعدة الاول غير ان الشطر الاخير يختم بالف مقصورة واحياناً بالف ممدودة كقول بعضهم:

ابات الليل جن بحشاي جانون
عفه على حاجبه مجرور جانون
يزرع الكلب ما يرويه جانون
كود آذار بسنين السخا

واكثر ما كانت تغنى العتابة في حفلات الاذكار التي يقيمها المتصوفة والمتشبهون برجال التصوف واصحاب الطرق الصوفية في التكايا او المساجد او البيوت التي يندر اصحابها باقامة (الذكر) في المناسبات المختلفة، فكان فتيان جيلنا هم الذين يغنون (العتابة) بانخراطهم في حلقة الذكر بعد الاستئذان من شيخ الحلقة. ويقوم اصغرهم سنا بواجبات الخدمة وملاحظة المجلس، فاذا حدث لغط ما في احدى الزوايا، او ارتفع صوت بعض المتكلمين من الحاضرين ينبرى احد هؤلاء فينادى بصوت جهوري رخيم:

–تربح.. يا من تصلي ع النبي تربح.. اشارة الى ان الكلام قد يؤثر على رجال الحلقة وان المقام محتشم ويوجب السكوت والاصغاء.. وهي طريقة شعبية اخاذة وتقابلها بالمجالس الاخرى عبارة .. صلي ع النبي..

ابراهيم بن عبدكه

لم يجل بخاطر ابراهيم بن عبدكه وهو يعيش ايامه الرتيبة في بساتين وحقول قرية (العواشق) من اعمال قضاء المقدادية، انه سوف يصبح علماً مبرزاً من اعلام الاشقياء ويكسب صيتاً داويا يجعله مضرب الامثال في اعمال البطش والقوة والعنف لولا مقتل اخيه عبد حسن في غضون سنتي ١٩١٦–١٧ في تلك القرية. فوجب عليه ان يثأر له طبقاً للتقاليد العشائرية الموروثة في بعض المدن وفي الارياف بصورة عامة، فان الريف لا يرحم القاتل ولابد من ان يقتل، وهكذا وطد العزم على قتل (جواد) قاتل اخيه عبد، وتأهب للامر.

وظل يتحين الفرص ويبحث عن جواد حتى عثر عليه في احدى محلات باب الشيخ، فصوب على صدره النار وقتله في الحال، ثم امتطى صهوة جواده وفر هارباً الى بعقوبة. ولكنها نهاية لبداية مأساة مروعة فقد جاءت الانباء من بعقوبة تفيد بان ستة من رجال الجندرمة قد قتلوا نتيجة لمقابلة وقعت بينهم وبين ابن عبدكه، ومنذ ذلك الحين اصبح غريماً للحكومة تطارده في أي ملاذ يأوي اليه.. ولكنها كانت في كل مرة لا تظفر منه بطائل.. ثم تعددت جرائم القتل التي كان يقوم بها هذا الشقي البائس، حتى داهمه بعض الاشخاص المتنكرين في قرية العبارة، وكانوا ثلاثة استطاع ان يقتل اثنين منهم بعد ان صوب عليهم النار ولاذ الثالث بأذيال الفرار، وكان احد هذين القتيلين نجم الزهو العزاوي الذي لفظ انفاسه الاخيرة وهو يودع قصة استشهاده الى ولده الصبي سهيل.. وقصة حرمانه من عطف والده، وقد كانت القصة الاولى تتألف من كلمتين لاغير همس بهما في اذن ولده (قتلني ابراهيم) وصعدت روحه الى السماء.

وطبيعي ان السلطة قد تأهبت للامر، اكثر من ذي قبل فان من الاهانة بحقها ان يقتل رجالها الاقوياء على يد هذا الشقي لمغامر الجريء الذي ظل مختفياً عن انظار الجندرمة حتى فاجأه المرض وهو في قرية (خرنابات) فلما علمت السلطة العثمانية بذلك ارسلت قوة كافية من رجالها الاشداء فقبضت عليه والقت به في سجن بعقوبة تمهيداً لمحاكمته.. غير انه وبعد عشرة اشهر استطاع ان يفر من سجنه ليستأنف اعماله الاجرامية حتى سقطت بغداد على يد الانكليز سنة ١٩١٨.

وذات يوم قدم قطار كركوك النازل الى بغداد وهو يقل قوة بريطانية ويقل الى جانبها السياسية الانكليزية المعروفة (مس بيل) وعند وصول القطار محطة شهربان داهمه بعض الرجال المدججين بالسلاح وتغلبوا على القوة واسروا المس بيل، وعند ذلك قدم ابن عبدكه فاستقبله الرجال بما يليق من استقبال رئيسهم، فلما شاهدت المس بيل حفاوتهم به احتمت به فحماها واوصلها الى حدود بغداد ثم تغير الامر.

ظل ابن عبدكه يتخفى عن انظار حكومة الاحتلال وهي تلاحقه وتطارده ويشاء القدر ان يأتي اليه بمن يهمس في اذنه بان ابن عمه محمد دارا قد قتل لثار قديم فوقعت الهمسة عليه وقع الصاعقة واعترته حمى شديدة اضطر بسببها وبسبب تضييق الخناق عليه ان يفر الى المحاويل وفي ١٤ حزيران ١٩٢٤ وبينما كان طريح فراشه حضر ثمانية من رجال الشرطة واحاطوا به من كل جانب فلم يستطع مقاومتهم واستسلم للامر الواقع فقبض عليه وارسل مخفوراً الى بغداد واجريت محاكمته وصدر عليه الحكم بالاعدام شنقاً حتى الموت، وقبيل تنفيذ الحكم ظهرت مس بيل، وتدخلت حتى خففت الحكم الى الاشغال الشاقة لمدة عشرين عاماً، وخرج من السجن سنة ١٩٣٦ بعد ان قضى فيه اثنى عشر عاماً.. وعطفت عليه الحكومة فعينته مراقباً للآثار في بابل.

وسلخ في بابل ثمانية عشر عاماً كلها خوف وقلق لا يفهم مما يحرسه من الاثار والكنوز الثمينة الا انها المهمة القفر، لا يكاد يخرج من داره الا ليدخلها فقد وهنت نفسه وطار قلبه شعاعاً، لانه كان ولا شك يعلم بقرارة نفسه انه لا يزال (مطلوباً) وان كان يجهل لمن..؟

وفي ٥ ايلول سنة ١٩٥٤ وقد بلغ سهيل من عمره الثلاثين سنة قضاها يتيماً تشتعل في قلبه قصة ابيه (قتلني ابراهيم) وجد ان الفرصة قد حانت لاطفاء هذه الجذوة اللاهبة في قلبه فذهب الى الحلة حيث يسكن ابن عبدكه واطلق عليه النار ثأراً لابيه واتماماً لقصة يتمه التي طالت ثلاثين عاما.. ولما نقل ابن عبدكه الى المستشفى سأل عن قاتله فقيل له انه سهيل بن نجم الزهور فارتجف وصرخ (ليش احنة ما توافينا بعد؟ اني قتلت ابوه وعمامه قتلوا ابن عمي ثم لفظ انفاسه الاخيرة.

وهكذا اسدل الستار على حياة ابن عبدكه الذي اصبح مضرب الامثال في عالم الاشقياء.

ولم يقع اختيارنا لجعله مثالاً للاشقياء الا لكونه آخر من قتل من اشقياء الجيل الماضي.

من طرائف فخري الزبيدي

كمال لطيف سالم

فخري الزبيدي سنة ١٩٤٨

المرحـوم فخري الزبيدي باحث فولكلوري وفنان وممثل كوميدي ومقدم برامج ومؤلف كتاب بغـداد من ١٩٠٠ إلى ١٩٣٤ ومـن مؤسسي المتحف البغدادي شغـل وظيفة مدير العلاقات في أمانة بغداد لسنوات طوال وله كتابات وذكريات لطيفة عن أيام زمان.

سنـة ١٩٤٧ كان مـن زملائنا في معهد الفنون الجميلة ناظم الغـزالي والمرحوم ناجي الراوي وحامـد الإطرقچي وخليل شوقي ومحمود قطان فكونّا فرقـة الزبانية إنضم حميد المحل إلينا وكان طالباً في قسم الرسم.

ومن الغريب أن ناظم الغزالي بدأ حياته الفنية بالإنتماء الى معهد الفنون الجميلة ببغداد نهاية الاربعينيات من القرن الماضي واختار فرع التمثيل وليس فرع الموسيقى.

وفي المعهـد قدمنا أول تمثيلية على مسرح قاعة الشعب كتبها لنا الفنان حقي الشبلي (أصحاب العقـول) حيث مثل الغزالي فيهـا دور (رجب الأخرس) وقدمت نفس التمثيلية من دار الإذاعة العراقية فيما بعد.

يذكر الراحل فخري الزبيدي جانباً من اهتمام ناظم الغزالي في التمثيل.

اثنـاء التمثيـل عملت له مقلبـاً، وكان سبب هذا- المقلب- انه يرغـب في أن يصبح مغنياً ونحن نعارضـ ذلك ولكنه ظل مصراً على رأيه، ففي احـدى المسرحيات كان هناك دور- الحاج ناجي الـراوي بـدور الطبيب وأنـا بدور المرضـ وناظم بدور المريضـ الذي سنجري لـه العملية، وخلال التمثيل قلت للمرحوم ناجي الراوي:

إنني أعمل معك لسنوات ممرض فاعطني الفرصة لكي أجري هذه العملية.

ولما كان المشهد الكوميدي يجيز ذلك فقد وافق الراوي على ذلك.

وكان ناظم ممدداً على الأرض يرتدي دشداشة العمليات الخضراء واثناء التمثيل رجت أهلس شعر صدره وأقول له:

- ناظم جر عدل وابقه ويانه لو أهلس شعر جسمك وراسك كله؟

- وكان ناظم يتحمل ويجالد من الالم وهو يقول:

- فدوه فخري استر عليه وشتريد اَني حاضر..

ولكني استمريت لمدة عشرة دقائق (أهلس) شعر صدره وهو يتقلب من الالم.

مقابـل هذا المقلب المؤلم والمضحك في آن واحد فقـد قابلني (بمقلب كبير) فعندما عقدتُ قراني علـى زوجتـي الحاليـة أم علي دعوت جميـع الأصدقاء للحضـور الاّ أن ناظم جـاء متأخراً في سيارة أجرة ظلت واقفة أمام البيت وعندما سألته عن سبب وقوف التاكسي، قال:

لدي عمل سأعود به..

والظاهر أن ناظم كان يتهيأ لعمل (نكتة) كبيرة أمام الأصدقاء.

وبعـد أن أتم القاضـي عقد القران إنسحب ناظم بسرعة الى سيـارة التاكسي وأخرج صندوق كبيراً لا نعرف ما في داخله.

ولكنه جلبه ووضعه أمام القاضي وخرج مسرعاً.

وعندما فتحنا الصندوق وجدنا بداخله (حجلة للأطفال).

وهذه كانت نكتة الموسم في الوسط الفني آنذاك لأنني عندما تزوجت (أم علي) كان عمري ٢٩ سنة وزوجتي عمرها ١٣ سنة والحجلة كانت ترمز الى أن زوجتي طفلة تحتاج الى (حجلة)؟

ومن ذكرياته مع المرحوم أبو رحومي (ابراهيم عرب) صاحب الحكايات الفكهة واللطيفة قال:

في أحـد ايـام رمضان الكريم كنـا مجموعة مـن الأصدقاء جالسـين بعد الإفطار مـع المرحوم ابراهيـم عـرب انسولف عن الأيام الجميلـة والذكريات الحلوة وكيـف كان رمضان ايام زمان ولعب المحيبس فقال ابراهيم:

- هو رمضان هسه مثل رمضان كبل !!!

- جاوبته يمعود ابو رحومي رمضان هو رمضان، هسه والا كبل اشيفرق!

- لا يابـه لا رمضـان كبل شـكل وهسه شكل... الناس جانت طيبة وال كلـوب چبيرة والدنيه غـير دنيـه والبشر غير بشـر والسمه صافية تـدري كبل ال كمر ابرمضان چـان يطلع ٣٠ يوم بدر وميغيب.

- سألتهُ اشلون چنتو اتلعبون المحيبس؟

- كال چنت أكعد بالليل وره صلاة التراويح اَني والجماعة على الشط بصوب الأعظمية والله يرحمـه أسطه عبد اللـه الخياط وجماعته (أحد أشهر الفكهين في بغـداد حينها) ي كعد كبالنه بصوب الكاظمية.

- إي أبو رحومي واشلون تلعبون!

- جماعـة أبو نجم (أسطه عبد الله الخيـاط) اثنين يلزمون البطانية ويبيتون المحبس، اصعد اَني على صخرة عالية من صوب المعظم وأباوع عليهم واصيح افرز إكعد إنت أبو الصاية طل ك أبـو العرقچـين اكعدانت ابو اليشمـاغ، ابو زبون البته جيبه من اليسـرة وتشتغل الهلاهل والتصفي ك.

- زين أبو رحومي اشلون اتجيب المحبس من ذاك الصوب!

- البلم موجود وآخذ فانوس لوكس ويايه واعبر الذاك الصوب واجيبه.

- أبـو رحومـي الفانوس شتسوي بيه، الدنيه كمـره وضويه انته مو كلـت ال كمر يطلع ٣٠ يوم بدر وميغيب.

- أبو علاوي يمعود دعبرهه للسالفة مو مشت ومحد ف كدهه. رحم الله ابراهيم عرب وفخري الزبيدي..

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير: عدنان حسين
مدير التحرير: علي حسين
هيئة التحرير: باسم عبد الحميد حمودي . رفعت عبد الرزاق
الاخراج الفني: نصير سليم التصحيح اللغوي: مروان عادل

طبعت بمطابع مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون